مملكة المطارحات العائليّة

وقصص أخرى

عبد الوهاب الأسواني



١٩٨٣



مملكة المطارحات العائلية وقصص أخ[illegible]

مملـــكة المطارحات العائليــة

توقف يبحث عن مصـدر الأنين · الظـلام يسد الفـراغ بين جدران الدرب والصحراء المحيطة تفح بردا كالابر :

ـ من ؟

ـ أنا محمد ·

وضحت له كتلة من الظلمة أسفل الجدار :

ـ لماذا تقعد هنا ؟

لم يرد · انحنى الشاب فسمع حشرجة الربو :

ـ لماذا تقعد هنا يا محمد ؟

موجة من البرودة زحفت على الدرب ، اعتدل لها الشاب ورفع ياقة معطفه :

ـ تعال معى ··

ـ أنا قاعد هنا ٠٠

ـ فى البرد ٠٠

ـ قاعد هنا ٠٠

انحنى الشاب وأمسك بيده :

ـ والله العظيم تقوم ٠

وقف وسار بجانبه صامتا ٠٠ فى الساحة الواسعة ، سمع الشاب صوتا نسائيا يهتف باسمه فعاد الى الدرب ٠

ـ أنا فاطمة ٠٠

عرف فى صوتها عمة محمد وتبين شبحها فى الظلمة ٠

ـ الى أين تأخذه ؟

ـ بيتنا ٠٠

ـ وى ؟ ٠٠ ليفضحنا عند الكواسر ؟

ـ هو ضيفى أنا ٠

ـ ولو ٠٠ الكواسر يرونه ، بهلاهيله عندكم ويعيروننا ٠

ـ سيدخل معى من غير ما يراه جنس بنى آدم ٠

ـ وأمك ؟ ٠٠ أقدر أرفع عينى فى عينها اذا قابلتها ؟

ـ لكنها أمى ٠

ـ على عينى وراسى ، ورايتها بيضاء كالشاش ٠٠ لكنها من الكواسرة ، أعداءنا ، يتمنوا لو دخلوا علينا قلب نجعنا ٠٠ وى ؟ ٠٠ عارف أو ٠٠ لا ، يا ولد الشيخ جلعان ؟

- عارف ، لكنه مريض وصدره يخرخر كالسواقى فى البر الثانى ٠

- يخرخر أفضل من عار الكواسر ، اتركه وامشى لحالك ٠

- فى البرد ؟

- فى البرد ٠٠ وضرورى قال لك ، أبوه نهب أمواله وخرب بيته ٠

- لا ٠٠ هو ٠٠٠

- هو يقول هذا لكل بنى آدم ٠٠ عمره فوق العشرين وقاعد من غير نفع يأكل الرغفان ويترك اخوانه الصغار من غير عشاء ويقول نهبوا أموالى وخربوا بيتى ٠٠ أمه الله يرحمها كانت كذابة تفذن الكلام من رأسها ٠٠ وان شاء الله يا شيخ ألقى معك خمسة قروش أو عشرة أو حتى نصف جنيه ٠

- معى عشرة ٠

- هاتها أشترى شوية سكر للصغار ليغمسوا به واتركه فى مكانه يتأدب لزمانه سايقة عليك النبى ٠

عاد الى الساحة فلم يجده ٠٠ تلفت حوله فلم ير غير غابات النخل ، لشدة سوادها ، وجسر الترعة ٠٠ دخل دربا لولبيا فتبين شبحه المنحنى مستندا الى الجدار :

- بنا يا محمد ٠

- قاعد هنا ٠

- والله العظيم أخاصمك طول العمر ٠

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ سالتنى عن أمى ٠

سار بجانبه صامتا ٠٠ قصير القامة زرى الهيئة ٠٠ حين صعدا جسر الترعة ، لاحظ الشاب انه يلف رأسه وعنقه ببقايا بردة ٠٠ فاجأته أزمة الربو فجلس متكورا ومضى يشهق فى معاناة ٠٠ حين هدأ قال :

ـ أبى نهب أموالى وخرب بيتى ٠

وقف فجأة وسار فى حيوية ٠٠ عند اجتيازهما لنبات البردى الشيطانى ، لاحظ الشاب أن جلبابه الأسود أقصر مما تحته ٠٠ اجتازا حوش النخل ، فى مدخل نجع الكواسر ، واقتربا من باب البيت ٠

ـ هو وامرأته ، نهبا أموالى ٠

تجعد أنف الشاب حين صدمته رائحة فمه فقال بلهجة اعتذار :

ـ انتظرنى نصف دقيقة يا محمد ٠

دخل الشاب البيت وسأل أمه :

ـ أين مفتاح « الديوان » ؟

ـ ضيوف ، يا نور العين ؟

ـ محمد عبد الصمد ٠

ـ من ؟

ـ وجدته فى البرد ٠٠ أبوه طرده ٠

أغلقت الترانزستور ، فصمت عبد الحليم حافظ ٠

ـ وماله ؟ ·· أهلا وسهلا ·

غرس الأب كنكة القهوة فى وقاد النار أمامه وتساءل ·

ـ هو قال لك خدنى معاك ؟

ـ لا ·· أنا وجدته فى ···

ـ قال لك ، أنا جائع ؟

ـ لا ·· هو كان ···

ـ طلب يرقد عندك ؟

قالت الأم : وماله يا جلعان ؟ ·· ابننا ويزورنا ·

مشط الأب لحيته الصغيرة المدببة بأصابعه قبل أن يفتح ورقة السيلوفان ويخرج منها قطعة الأفيون ويتنهد :

ـ اسكتى يا بنت المرحوم ·

عاد عبد الحليم حافظ للغناء ، وانسل الشاب الى الداخل ·· فى حجرة منعزلة رفع ماجور الفخار المقلوب فوق سلة من الخوص وتناول رغيفين ·· أدخل يده فى صومعة واطئة وملأ كفه مرتين بالتمر ·· دخل مبنى المواشى وخرج من باب صغير يؤدى الى المزارع ·· لم يجده ·· بحث عنه فى الساحة وفى الدرب ، وعندما اعتاد الظلام ، رآه فى حوش النخل ينكمش بين نخلتين بعيدا عن الطريق ··

ـ خذ يا محمد ·

تردد قليلا قبل أن يمد يده ويتناول اللفافة ·

ـ حاجات بسيطة ·· ولو رجعت يكون أحسن ·· تحب أوصلك ؟

ـ لا ·

ـ الرقاد فى الطريق صعب فى البرد ٠٠ اطرق الباب وأبوك يفتح لك ٠٠ طيب ؟

ـ طيب ٠

ترك له يده فصافحها ٠٠ وقف الشاب يحدق فى ظهره ويعض شفته السفلى :

ـ أى خدمة ثانية يا محمد ؟

لم يرد ٠

❊ ❊ ❊

انهمك الشبان فى تنسيق أسرة الحبال والدكاك فى الساحة الكبرى ٠٠ جعلوها على شكل مربع كبير من ثلاثة أضلاع ٠٠ فرشوا دار الضيافة بالسجاجيد ووضعوا المساند على طول الجدران ٠٠ كنسوا السقيفة الخارجية ومسحوا أعمدتها الحمراء ٠

فى منتصف الساحة الصغرى ، تربعت امرأة على الأرض وأمامها طبل صغير تدق عليه دقة « المناحة » ، حولها تدور حلقة كبيرة من النساء لابسات السواد ٠

صرخة طويلة أطلقتها بنت شيخ الكواسر وهى تقترب على رأس نســـاء قبيلتهـــا ٠٠ ظلت صرختها متميزة رغم صرخة وفدها الجماعية ٠٠ جاوبتها الساحة بموجة عالية من الصراخ كأنها ترد تحيتها ٠

تقدمت عن وفدها خطوات ، مدت سبابتها فى اتجاه السماء ، توقفت ضاربة الطبل عن الدق ، كفت حلقة النساء عن الدوران ٠٠ بصوت منغم ، تخالطه رنة فخر ، قالت :

ـ أنا شفت عايق على السرير نايم ·· غطوا يمينه ، سيفها قايم ·

موجة عالية من الصراخ انطلقت ، علا صوت الطبل ، أسرعت الحلقة فى دورانها ·

رفعت بنت الرجل البارز سبابتها فى اتجاه السماء ، انزلق كم ثوبها الحريرى الأسود ، ظهر السوار الذهبى حول رسغها بديع التكوين ، توقف الطبل :

ـ شيخ العرب ، شيخ الرجاجيل ··

شبيه بحر مسرى ، بسبع سيابيل ·

أعنف موجة صراخ ، منذ مات « محمد » صدرت عن الساحة الصغرى ، تشابكت فيها خيوطه مع ذرات الغبار وهدير الطبل ·

شيوخ القبيلة يدخلون ويخرجون ، يستقبلون وفود المعزين التى لا تنقطع ، وفى طرف الساحة صف من الحمير المربوطة عليها السروج الأنيقة ، وفى الطرف الآخر بضعة رجال انهمكوا فى سلخ ثلاثة خراف ·

فى أقصى ركن من السقيفة ، جلس رجل أشيب ، من فتحة زعبوطه اليدوى صعد عنقه الطويل وظهرت عظام منكبيه العريضة كثور المحراث ·· مسطح مثلث من النسيج الأزرق به ثقب واسع أطل منه شعر صدره كذبات الحلفاء ·· طية عمامته العليا ، المفتولة ، انزلقت واستندت على الطية التى تحتها ، فبدت على رأسه الضخم ، كقمة جبل تصدعت ومالت دون أن تسقط ·

دمعة كبيرة ، انحدرت على الخدود وجهه الصخرى ، توقفت قليلا ، كأنها كرة بلورية ، على نتوء ، ثم تشتتت عند اصطدامها بشاربه

كلير

المبتل ·· نظراته ، ببريقها المخيف ، توحى بأنه لا يعبأ بالواقفين ولا بالجالسين ·

لصق الجدار الخارجى وفى أول الساحة ، جلس شاب يرتدى جلبابا أنيقا ، عمامته لها شراشيب خضراء ، وفى يده ساعة ·· قال لجاره هامسا :

ــ سمعت عن رد الأصيلة بنت الأصيل ؟

ــ لا ··

ــ بنت اللئيم قالت لها : « شفت عايق على السرير نايم ، غطوا يمينه ، سيفها قايم » ·· ردت عليها فى الحال : « شيخ العرب ، شيخ الرجاجيل ، شبيه بحرى مسرى ، بسبع سياييل » ·

ــ الله أكبر ·

ــ لا ترفع صوتك ·

ــ شرفتنا والله بنت الأصيلة ·

ــ فعلا ·· ردها أحسن من رد مكى الأزرق على ابن الغندور فى يوم عرس الهوارة ·

ــ أى والله ·· أعد على ما قالته ·

هب الرجل البارز واقفا ، حين سمع صهيل جواد فى الخارج ·· نفض عباءته وأدخل قدميه فى حذائه ·· اجتاز المبنى الداخلى ، وفى منتصف السقيفة ، ظهر رجل مدملج حول كتفيه عباءة موشاة بالقصب ·· عانق البارز وخاطب شيوخ القبيلة :

ــ هكذا حال الدنيا يا عرب ·

ـ حالها ٠٠ أهلا يا معتصم بك ٠

رفع الباز سبابته للرجال الذين يسلخون الخراف ، فانحنى رجل يحمل سكينا ، ودخل بيتا يطل على الساحة ٠ البارز

أشار الشاب الذى يلف العمامة الخضراء الحواشى الى جواد أشقر به بقعة بيضاء فى بطنه :

ـ حصان قدمه سعيد ٠٠ معتصم بك اشتراه من هنا ، وفاز فى الانتخابات من هنا ٠

من البيت المطل على الساحة ، خرج الرجل الذى يحمل السكين ، يجر خروفا من قرنه ويسير به فى صعوبة ٠٠ توقف به بجوار المنهمكين فى السلخ ، أرقده على جنبه ، وضع قدمه فوق ضلوعه ، ذبحه ٠

تقدم شاب بصينية مستطيلة ، رصت عليها السجائر فى صفوف هندسية ، مدها لمعتصم بك الذى سأل البارز :

ـ متى ستزوج الولد الكبير ؟

ـ مع محصول البلح ٠

ـ ربنا يعدل الطريق ٠٠ أهو ، ناس تكبر ، وناس تطلع ، والكون عامر ، لكن المتوفى ، ابن من ؟

أشار البارز الى الرجل الطويل العظام فى أقصى السقيفة الخارجية ٠

ـ ابن عبد الصمد ٠

ـ من فرعكم ؟

ـ الفرع الثانى ٠

انتهى الشاب ذو العمامة الخضراء الحواشى ، من كتابة أسماء القبيلة فى كراسة صغيرة وهمس لجاره :

ـ النفقات زادت على نفقات أى ميت آخر ٠٠ ربما النفر فينا يدفع أربعين قرشا ٠

اعتدل رجل عليه قميص توابى ولوح بيده :

ـ أربعين ؟ ٠٠ الله يلعن الأيام التى جعلتنا منكم ٠

دخل الساحة شاب يلهث ، قال فى عجلة :

ـ الكواسر جاءوا ٠

وقف كل من فى الساحة يتلفتون ، وكف الذين يسلخون عن العمل ٠٠ فجأة انطلق الجميع هاربين كأنهم سرب من الحمام سمع طلقة بندقية ٠٠ تجمع الذين يسلخون الخراف ، حملوها ودخلوا بها أحد البيوت وأغلقوا الباب وراءهم ٠

انتفض البارز واقفا وتساءل :

ـ من أى طريق ؟

ـ من الدرب البحرى ، وكلما مروا ببيت كسروا ضبة الباب ٠

ضغط أسنانه ولوح بيده :

ـ يعنى وصلنا الى حد الاهانة ؟

والتفت الى الرجل الطويل العظام وقال :

ـ سمعت يا شيخ عبد الصمد ؟

كان عبد الصمد قد خلع زعبوطه الخشن وبقى بالقميص الأزرق

ذى الحياكة البدائية ٠٠ خلع عمامته ولفها حول خصره مرتين وعقدها فى الجانب الأيسر وخرج ٠

دار الضيوف حول أنفسهم ، بزعابيطهم الفضفاضية السوداء وعمائمهم البيضاء الكبيرة كسرب البجع الحائر ٠٠ كور البارز قبضته وضربها فى كفه بعنف :

ـ كل واحد يقعد فى مكانه ٠٠ لا الكواسر ولا غيرهم يقدرون على دخول نجعنا ٠

عاد الذين هربوا الى الساحة يحملون النبابيت والتفوا حول عبد الصمد ٠٠ مضى ينظمهم باشارات من يده ٠٠ مجموعة عن يمينه وأخرى عن يساره ، وزحف بهم فى اتجاه الدرب البحرى ٠

ـ وأنا ؟

تساءل معتصم بك فابتسم له البارز ؟

ـ تطلع من النجع فى أى وقت يعجبك ٠٠ عزيزا كريما فى حماية كرام ، لكن بعد الغداء ٠

نفض معتصم بك عباءته وسار خطوات :

ـ خير البر عاجله ٠

ـ قبل الغداء ؟

ـ خير البر عاجله ٠

دخل البارز الى الدرب القبلى يتبعه معتصم بك راكبا جواده ، لكنهما توقفا على أصوات صراخ :

ـ ما هذا ؟

ـ ارجعوا ٠٠ الكواسر فى الدرب القبلى أيضا ٠

مد البارز يده فى اتجاه درب لولبى ، وكمه « الموهير » الواسع يرفرف فى الهواء :

ـ من هنا ٠

لوى معتصم بك عنان جواده فدار به فى اتجاه الغرب ٠٠ تبختر الجواد فى مشيته وتراقصت وراءه موجة خفيفة من الغبار ٠٠ حملت الرياح فرقعة الذبابيت تأتى من بعيد ٠٠ ابتسم البارز وأشار الى الدرب البحرى :

ـ عبد الصمد هناك ٠

ـ من عبيدكم هو ؟

ـ أمه ٠٠ أما أبوه ، فحر ، من صميم قبيلتنا ٠

ـ طويل عريض مثل ابن الناقة ٠

ـ أنت لم تره منذ عشر سنوات عندما ساق قبيلة العوامر أمامه بخمسة رجال ٠

شد معتصم بك عنان الجواد وتوقف حين سمع الصياح فى الدرب اللولبى ٠٠ كان البارز قد توقف أمامه وطرف لسانه يلمس شفته السفلى بعصبية :

ـ انزل يا بك ٠

ـ هه ؟

ـ انزل حالا ٠

هبط بسرعة ووقف ممسكا باللجام :

ـ ألا يوجد درب رابع للنجع ؟

ـ لا ‥ اسمع ‥ تعال ورائى ٠

ـ أين ؟

ـ ندخل الحصان فى بيتى ٠

التفت معتصم بك وراءه بحدة حين سمع فرقعة النبابيت كأنها فوق رأسه ‥ فتح البارز باب بيت أنيق فى طرف الساحة ، وربط طرف اللجام فى جريد نخلة واطئة تتوسط فناء البيت ، وخرج ‥ ظهر فى الدرب اللولبى شاب حافى القدمين يهرول ناحيتهما ‥ تجاوزهما ودخل الساحة وهو يلوى عنقه فى اتجاه البارز :

ـ عبد الصمد ‥ لابد من عبد الصمد ٠

خلع البارز نعليه واعتلى احدى الدكك واشرأب بعنقه ‥ ظهر فى الساحة رجل ، حزام قفطانه الشاهى مزركش ، ولحيته المدببة يخالطها البياض :

ـ عبد الصمد كنسهم فى الدرب القبلى يا بن المرحوم ٠

ـ لكن عبد الصمد فى الدرب البحرى ٠

ـ الدرب البحرى انتهى ‥ ترك بقيته للاولاد ودخل القبلى ٠

ـ حالا يا شيخ جعلان ‥ قال له الدرب الغربى مغلوب ٠

فتح الشيخ جلعان ورقة سيلوفان وقال :

ـ دخول الدرب صعب يا ابن المرحوم ٠

ـ كلف أى واحد من الأولاد ٠

ـ أين هم الأولاد ؟

كف الصياح فجـأة فى الدرب اللولبى وخيـم صمت عميق كالموت ‥ قفز البارز من فوق الدكة ونهر معتصم بك :

ـ ادخل ٠

ضم الشيخ جعلان كفـه على ورقة السيلوفان وهرول يتبعه معتصم بك والبارز ٠٠ عند العتبة عاد البارز الى الساحة وحمل نعله ثم دخل وراءهما وأغلق الباب فى عنف ٠

من الدرب اللولبى تدفق عـدد كبير من الرجـال والشبان ، يحتضنون النبابيت ويجرون فى فوضى ٠٠ تدفقت بعدهم أسراب من حاملى النبابيت ، رجالها يشتمون فى زمجرة ، يقودهم عملاق أعور فى صدر قميصه الأزرق رقعة بيضاء مستديرة كأنها درع ٠

قعقعت المزاليج الداخلية لباب دار الضيافة وهو ينغلق فجأة ، وفى بداية الدرب القبلى ظهر عبد الصمد مستندا على نبوته الطويل ووجهه ملطخ بالعرق والتراب ٠٠ اتجه الذين يجرون فى فوضى ناحيته وشكلوا حوله شبه دائرة ٠٠ توقف العملاق الأعور فى طرف الساحة المقابل وصرخ فى رجاله :

ـ العبد جاء ٠٠ لا تدخلوا عليه من غير نظام ٠

تراجع المهاجمون بظهورهم وهم يحدقون فى عبد الصمد ٠٠ داروا حول العملاق الأعور وشكلوا أنفسهم فى صف بطول الساحة ٠

دارت الحلقة حول عبد الصمد وتبادل رجالها الأماكن وانقشع الغبار عن صف طويل منسق كأنه جدار بدا عبد الصمد فى منتصفه كالمئذنة ٠

أدار العملاق الأعور عنقه الى الوراء وأشار الى بيت البارز :

ـ اعطوه حقه ٠

تقدم شاب مفتول العضل ، يرتدى كومة من الهلاهيل ، وأهوى

بنبوته على ضبة الباب ذات الأشكال الهندسية المنحوتة ·· تناثر حطام الضبة فوق العتبة الجرانيتية فى صوت أشبه بالولولة ·

رفع العملاق الأعور نبوته الى أعلى وحمحم بحلقة :

ـ فى قلب نجعكم يا بن ياقوته ·

فك عبد الصمد العمامة وأعاد ربطها حول خصره ·· حفر الأرض بقدمه الكبيرة ·· كمرجون النخل ، وأزاح بها التراب الى الوراء ، صعد فى الخلفية عمود كثيف من الغبار ·

زحف برجاله ببطء شديد ·· فى منتصف الساحة أطلق ، فجأة ، زغرودة خشنة أشبه بصرخة حيوان جريح صهل لها الحصان فى داخل بيت الزعيم صهيلا مرتبكا كصرخة الاستغاثة ·

* * *

توتر الجو مرة أخرى ، لكن معتصم بك حسم الموقف :

ـ ما دام المشايخ جاءوا الى دارك فهم مقبلون ·· الفاتحة · مقبولون

رفع شيخ الكواسر يده القابضة على مذبة عاجية وتساءل :

ـ يا سلام ؟ ·· رجلى مقتول وأصالح يا قاضى العرب ؟

ـ رجلك مقتول ورجلهم مقتول ·

ـ رجلى حر ·

ـ ورجلهم حر ·

ـ لا ·

ـ المسلمون سواسية كأسنان المشط فلا تكفر ·

أشاح شيخ الكواسر بوجهه فعاجله معتصم بك :
ـ الفاتحة ٠

وضعت صوانى الطعـام فوق الموائد ذات المفارش الحمـراء اللامعة ، وأرخى الشيخ جلعان حزام قفطانه المزركش بعجلة مقصودة ضحكوا لها ٠٠ شاركهم الضحك وقال للبارز :

ـ قبل الأكل ، قم سلم على أختك ، وبشرها بالصلح يا بن المرحوم ٠

وقف البارز وسار بضع خطوات ، حافى القدمين ، فوق السجاد الناعم ٠٠ لملم عباءته وانحنى أمام باب جانبى صغير ، ودلف الى بيت شيخ الكواسر ٠

العـــم

كانا يسيران بحذاء النيل فوق جواديهما مع بزوغ الفجر ·· أحمد بسنواته العشرين فوق جواده الأحمر ذى العرف الأصفر والخرطوم الأبيض ، وعم باشرى الذى جاوز الخمسين بقليل يبدو بجسده الرفيع الطويل فى حيوية ابن العشرين فوق جواده الأسود اللامع السواد ·· كانت وجهتهما « القسايم » حيث يقام مولد الشيخ عبد الصمد الكبير ، ويجرى سباق الخيل الذى تتنافس فيه القرى بخيلها وفرسانها ·· وقال عم باشرى وهو يتأمل عنق جواده الذى راح يتبختر به فى خيلاء :

ـ الحقيقة انكم جلبتم لنا العار فى مولد السنة الماضية ·

فرد أحمد فى حرارة وهو يعدل من وضع عمامته الكبيرة التى تهدلت من اهتزازات الجواد :

ـ أنا عملت كل جهدى ·· سابقت هذا ·· وغلبت ذاك ··

شرقت فى (المرماح) وغربت ولم أتوقف الا بعد أن سقط بى الجواد (ثم وهو يرفع راحته الى محاذاة كتفه) الذى على عملته ·

رد عم باشرى دون أن يلتفت اليه :

ـ المهم فى النتيجة ·· البلاد كلها هللت عليكم وضحكت منكم ·· وأصبحت بلدنا التى يعمل كل فرسان الدنيا حسابها مضغة فى الأفواه يسخر منها من يستحق ومن لا يستحق ·· أنا حينما بلغنى الخبر تمنيت الموت ·· هذا المولد من عهد أجدادنا ونحن فرسانه وسادته ، لا ينازعنا فيه منازع ·· ولما شببتم أنتم سلمناكم اياه وقلنا لكم : « هاكم مرماح الخيل ·· لكم فيه السيادة والصيت البعيد ، لا نريد منكم صيتا جديداً ·· فقط حافظوا على صيتنا القديم ·· واذا بكم تنزلون الميدان فى غاية من استهتار ،ولم يمض عليكم مولدان اثنان حتى كانت السيادة قد انتزعت منكم (ثم فى لهجة غاضبة) ومن الذى انتزعها منكم ؟ ·· بلدة (المويسات) ؟ ·· تلك القرية التى لا نعرف لها أصلا من فصل ، والتى لم نعمل لفرسانها أى حساب فى يوم من الأيام ؟

كان عم باشرى يتكلم فى غضب شديد ، بينما صمت أحمد صمتا تاما وان كان وجهه قد علته كآبة ·· ومرت فترة صمت أشعل عم باشرى خلالها سيجارة ، ثم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق :

ـ أنا لا أذكر فى حياتى أن أحد فرسان (المويسات) تجرأ وطلب مسابقتى أو مسابقة أحد من بلدنا ·· أبدا ·· (ثم فى لهجة تهكمية) عشنا ورأينا المويسات لها السيادة علينا ·· الله ·· الله يا دنيا !

والتفت عم باشرى ناحية النيل فرأى المراكب الشراعية تملأ صفحته متجهة الى (القسايم) وقد امتلأت بالشباب بملابسهم الجديدة ، والبنات وقد لمعت شيلان القطيفة على رؤوسهن وقد انهمك

الجميع ـ كل على طريقته ـ فى ترديد الأغانى المناسبة التى تنم عن الفرحة بالمولد وما ينتظرهم فيه من بهجة ، فبدا المنظر ـ والجبل الشرقى يطل عليهم بسفحه الأخضر وقمته البيضاء ـ كلوحة رائعة فى معبد فرعونى قديم ٠٠ فالتفت عم باشرى الى أحمد وقال له :

ـ أنتم لا تذهبون الى « مرماح » الخيل من أجل السباق ٠٠ ولكنكم تذهبون للبحلقة فى شيلان القطيفة وما تحت شيلان القطيفة يا أولاد البقر ! ليست « المويسات » هى التى هزمتكم ٠٠ المويسات أحقر من ذلك وأذل ٠٠ أنتم هزمتم من شيلان القطيفة !

رفع أحمد حاجبيه وقال والدهشة مرتسمة على وجهه الأسمر الجميل :

ـ لا والله يا عم ٠٠ المسألة هى ان الـ ٠٠٠

فقاطعه عم باشرى قائلا :

ـ اخرس ! ٠٠ ألك وجه تريد أن تدافع به ؟ خبرنى اذن عن السر فى هزيمتكم هذه العجيبة ؟ هه ؟ ٠٠ ما سر هزيمتكم ؟ (ثم فى سخرية) الشيلان الحمراء هى السبب ٠٠ أم الشيلان الصفراء ؟!

تجهم وجه أحمد وهو يقول فى نبرة مؤدبة :

ـ أنا عملت ما على !

رد عم باشرى ولا زالت العصبية تلف صوته :

ـ قلت لك العبرة بالنتيجة ٠٠ لقد سألت كل واحد فيكم فلم يقل غير هذه الجملة (ثم محاكاة كاريكاتورية) أنا عملت ما على ! ٠٠ اذا كنتم جميعا عملتم ما عليكم ٠٠ فما سبب الهزيمة يا أولاد البقر ؟!

لم تكن هناك صلة قرابة بين أحمد وعم باشرى ٠٠ كل الصلة

التى بينهما هى انتسابهما لقرية واحدة ·· قرية البغدادية ·· ولكن رباط الفروسية ربط بينهما برباط أقوى من رابطة النسب ·· فكان أحمد وكل من فى مثل سنه من الفرسان يتطلعون الى عم باشرى فى اكبار ، وينظرون اليه على انه مثلهم الأعلى فى كل ما يتصل بالفروسية من قريب أو بعيد ·· ولا عجب ·· فهو الفارس الأول فى كل (الموالد) و (الليالى) التى تقـام فى قريتهم والقـرى المجاورة والذى يعمل له ألف حساب ·· ومع ان عم باشرى قد اعتزل شهود الموالد منذ سنتين الا أن علاقته بالفروسية لم تنقطع ·· فهو ينزل بجواده كل أصيل الى الرمال الفسيحة على شاطىء القرية ويركض أكثر من ساعتين وكأنه يخشى أن ينسى الركوب ·· علاوة على ان صلته بالفرسان من شباب القرية كصلة الأستاذ بتلاميذه ·· سهراتهم الليلية كلها عنده ، وأحاديثهم كلها تدور حول الخيـل وأصنافها وطباعها وأفضـــل الطـــرق لركوبها والتغلب بها على الخصوم ·· بل ان الذى تلد له فرس فى القرية لا يهدأ له بال الا اذا أحضر المهر الصغير ــ أو المهرة ــ الى عم باشرى ليمكث عنـده قرابة الشهر كى يعلمه « المشى » على قواعده الصحيحة ·· من هنا كانت نظرة احمد وأمثاله الى عم باشرى نظرة يشوبها الاحترام الشديد ·· بل انهم لا يخاطبونه الا (بيا ·· عم) ·· حتى اذا غاب عنهم وقال أحدهم (العم) عرف الجميع بأنه يعنى عم باشرى ·· وفى الأيام الأخيرة ــ بعد الهزيمة فى المولد الماضى ــ رأى الشبان من أستاذهم طبعا جديدا لم يعهدوه فيه من قبل ·· يحادثهم بعصبية ، ويثور فى وجوههم لأتفه الأسباب ·· وأحيانا كثيرة يشتمهم خلال نقاشـهم معه ·· فتحملوا منه كل ذلك صابرين لاعتقادهم بأنهم يستحقون ذلك لهزيمتهم الأخيرة غير المشرفة أمام (المويسات) ·

وقال أحمد فى أسى ولكن بلهجة حادة :

ــ والله العظيم أنا لم أبارح المرماح ولا ثانية واحدة ·

فقال عم باشرى وهو ينظر أمامه الى الحقول المترامية الى مالا نهاية :

ــ مغادرة المرماح ليست مهمة ٠٠ لكن بشرط ٠٠ انتزعوا سيادة المرماح أولا ، ثم بعد ذلك امرحوا كما يحلو لكم (ثم ملتفتا اليه) : ألم أقل لكم أكثر من مرة : اذا دخلتم المرماح فادخلوه خائفين وكأنكم تدخلونه لأول مرة ؟ ٠٠ لماذا قلت لكم ذلك ؟ ٠٠ كى أجنبكم الغرور يا أولاد البقر ! ٠٠ فالغرور يفضى الى الاستهتار ، والاستهتار يفضى الى الغفلة ومن ثم يأخذكم عدوكم على غرة ٠٠ لكن تقول لمن ؟

فقال أحمد وهو يرعش يده الى أعلى ليحسركم القفطان الشاهى بحركة لا ارادية :

ــ نحن غلبناهم فى أول الأمر والله يا عم ٠٠ ولكنهم استعانوا علينا بجواد طويل القوائم ، كبير الجثة ٠٠ اسمه (الغرباوى) ٠٠ ما ان جاء هذا الجواد العجيب الذى لم أر مثله فى حياتى حتى هزم كل جواد تصدى له من بلدنا ٠٠ هذا هو سبب الهزيمة ٠

فقال عم باشرى فى سخرية :

ــ مدد ٠٠ مدد ٠٠ يا غرباوى مدد ! (ثم ملتفتا اليه فى عصبية) : ألم أقل لكم أكثر من ألف مرة ان الذى يفوز فى المرماح هو الفارس وليس الجواد ؟ ٠٠ ألم أقل لكم ان الفارس الحقيقى هو الذى يهزم أحسن الجياد بأسوأ الجياد ؟ ٠٠ لو انكم قلتم ان الذى هزمكم هو الفارس فلان الفلانى لعذرتكم ٠٠ أما أن تقولوا ان الذى هزمكم هو الجواد الفلانى فهذا يعنى أنكم لا تعرفون عن الخيل وركوب الخيل شيئا ٠

ومرت فترة صمت لم يكن يقطعها غير وقع حوافر الخيل على الأرض الهشة ٠٠ وقال عم باشرى وهو يمد يده الى الأمام :

ـ على كل حال ها نحن ذاهبون الى المرماح ٠٠ وسنرى !

عندما وصلا الى ميدان السباق ٠٠ ألقى عم باشرى نظـرة سريعة على الميدان الواسع ذى الرمال البيضاء ، الذى يبدأ من النيل ويضرب فى الصحراء الى مالا نهاية ٠٠ فألفى فرسان القرى قد تجمعوا بخيولهم جماعات جماعات ٠٠ كل جماعة من قرية ٠٠ وصهل جواده صهيلا قويا متواصلا وهو يتجه ـ مع احمد ـ الى حيث تقف خيل قريتهم ٠٠ فجاوبه صهيل متواصل من أكثر من جواد وكأنها ترد له التحية ٠٠ ولفت عم باشرى الأنظار بقفطانه الشاهى ، وعمامته الكبيرة وشاربه الفضى ٠٠ وتهامس فرسان القرى وهم يشيرون اليه من بعيد ويحدقون فيه فى اهتمام وطفح البشر على وجوه تلاميذه من أبناء قريته بمجرد أن وقعت أنظارهم عليه ٠٠ واتسعت ابتساماتهم وهم يرحبون به ٠٠ وقال له عبد العاطى الزناتى أحد فرسان القرية مرحبا :

ـ سنؤرخ بهذا اليوم يا عم !

ولم يرد عم باشرى ٠٠ شرع فى العمل بمجرد وصوله ٠٠ أنزل هذا الفارس من على جواده ٠٠ وأعطـاه جوادا آخر ٠٠ وأعطى جواده لفارس غيره ٠٠ وأشار الى عدة جياد فطلب أن تكون فى المقدمة ٠٠ وطلب من خيل آخر ألا تشترك فى السباق نهائيا ٠٠ وفك الكثير من الألجمة وأعادها لخيلها مرة أخرى بعد أن وسع بعضها وضيق بعضها الآخر ٠٠ واستبدل سرج هذا الجواد بسرج ذاك ٠٠ ودار حول أحد الجياد وضربه بيده ضربات خفيفة فى بطنه ، ثم طلب من صاحبه أن ينزل به الى النيل كى يستحم ليطرد عنه الكسل ، وطلب من أحد الفرسان أن يقلم حوافر جواده لأنها أطول مما يجب الأمر الذى قد يعرضه للسقوط أثناء السباق ٠ وهكذا ٠٠ والعجيب أن الجميع يطيعونه طاعة عمياء ، ولا يعترضونه فى شىء ٠٠ بل ينفذون أوامره وهم فى غاية السرور ٠٠ واذا أبدى

أحدهم ملاحظة وأعجبته نفذها وهو يقول : « مادمتم فاهمين ٠٠ فلماذا هزمتم يا أولاد البقر ؟! » ولم تطلع الشمس وتنتشر ، ويبدأ السباق ، حتى كان عم باشرى قد فرغ من تنظيمه ، وحتى كانت (البغدادية) قد أكملت استعدادها لخوض الموقعة فى ايمان وثقة ٠

وبدأ السباق بين البلاد الأخرى ٠٠ وفازت قرية (الكلاحفة) على كل القرى الأخرى ٠٠ وتصدت لها (البغدادية) ـ كما تقضى تقاليد المرماح ـ فهزمتها بأسرع مما كان يظن أحد ٠٠ وجاء الدور على الخصمين الكبيرين ـ البغدادية والمويسات ـ وركضت الخيل ٠٠ ولوح الفرسان بجريدهم الذى يرى على هيئة الرماح ٠٠ وكلما فاز جواد عرفت النتيجة قبل وصوله الى نهاية السباق من صيحات الجماهير المتراصة فى صفين عميقين طويلين من أول السباق الى آخره ٠٠ فصيحاتها تشق الفضاء ، وأقدامها تزلزل الأرض ٠٠ وكانت النتيجة تعرف بأنها لصالح المويسات اذا صدرت عن الجماهير ـ المويسات منهم ـ هتافات بحياة المويسات سيدة الدنيا ! ٠٠ أما اذا كانت النتيجة لصالح البغدادية فأول ما ينبىء بذلك زغرودة طويلة عميقة تجلجل فى فرح مغطية على كل صوت عداها ٠٠ وتأرجح النصر بين الفريقين ٠٠ مال هنا تارة ومال هناك تارة أخرى ٠٠ الا أن كفة البغدادية بدت راجحة ٠٠ ولعل وجود عم باشرى كان من العوامل التى أصابت فرسان المويسات بالخور ٠٠ فقد سبقت الرجال هالة ـ الى ميدان السباق ـ كانت أقرب ما تكون الى الأساطير ٠٠ ولم ينزل عم باشرى الى الميدان ٠٠ اكتفى بالاشراف والتوجيه وكأنه يعد نفسه للموقعة الفاصلة ٠٠ وتوالى ركض الخيل ٠٠ وتوالت الزغاريد ٠٠ حتى أصبحت الزغرودة هى النهاية الطبيعية المنتظرة لكل جوادين يتسابقان ٠٠ وبات أمر عودة السيادة البغدادية أمرا مفروغا منه ٠٠ وفجأة سرت همهمة بين الجماهير تحولت شيئا فشيئا الى ما يشبه اللغط وصاح أحمد وهو

بُرى

يشير الى جواد ضخم يدخل به صاحبه الميدان على مهل ‥ مخاطبا عم باشرى :

ـ أنظر يا عم ‥ أنه الغرباوى !

ولم ينظر عم باشرى الى الجواد ‥ فى أول الأمر استرعى انتباهه الحال التى أصبحت عليها الجماهير ‥ فقد سرت فى صفوفها همهمة ووشوشة ـ مع تحركها الدائم مما يخل بنظام الميدان ـ بينما امتدت مئات الأصابع تشير الى الجواد ، ونزلت الأصابع لتتسلط آلاف الأعين ، وتمتمت الشفاه فى عجب ‥ (الغرباوى) ‥ تنطق الكلمة على شطرين ‥ (الـ) وحدها فى سرعة ولهفة ، ثم تنطق (غرباوى) فى بطء شديد وبصوت ممطوط ‥ وكأنها ـ بطريقة نطقها هذه ـ تقول : (حضر الماء بطل التيمم !) ‥ وحول عم باشرى بصره فرأى جوادا بائن الطول ، ظاهر الارتفاع ، عريض الصدر ، ضامر البطن ، أشقر اللون ، وان خالط عرفه ومقدمته البياض ‥ وألقى على فارسه نظرة خبير فألفاه فتى فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، نحاسى الوجه ، أصفر الشارب ‥ أسكرته هتافات (المويسات) وتهليلها فأمال رأسه الى اليمين قليلا فى دلال وثقة !

ولم تهدأ ضجة جماهير المويسات ويعود النظام الى ما كان عليه قبل ساعة كاملة ‥ وحدق فرسان البغدادية فى وجه عم باشرى وكأنهم يسألونه الرأى ‥ فأشار بيده الى حيث يقف (الغرباوى) وقال وهو يبتسم : أتخشون هذا الأعور ؟!

ـ أعور ؟

هكذا صاح فرسان البغدادية والدهشة تعقد ألسنتهم وهم يحدقون فى وجه عم باشرى بين مصدقين ومكذبين ‥ ومرت فترة صمت كأنها دهر قطعها عم باشرى بقوله :

ـ أنا أعرف هذا الجواد قبـل أن تشتريه المويسات ·· انه جواد غريب ·· ليس من هنا ·· وهو علاوة على أنه أعور ·· سأخبركم بالسر الذى يمكنكم من هزيمته بسهولة ·

وقال أحد الفرسان :

ـ ألا تنزل اليه أنت يا عم ؟

فرد عم باشرى فى بساطة :

ـ أنا ؟ ·· لم ؟ ·· انه لا يستحق !

ثم أشار الى أحمد ·· فاقترب منه ·· ووضع عم باشرى فمه قرب أذن أحمد ·· وأسر اليه ببضع كلمات ·· فرفع أحمد حاجبيه وقال :

ـ أهكذا ؟

ـ نعم ·· ولا شىء غير هذا ·

ـ بمجرد أن أصدر هذا الصوت ·· يتوقف عن الركض ·

ـ نعم ·· ألم أقل لك اننى أعرفه ؟

لكز أحمد جواده ووقف قبالة الغرباوى ·· واستعد الفارسان للانطلاق ·· وقال عم باشرى لمن حوله :

ـ لا داعى لوجودى بينكم ·· سأذهب الى البلد ·· سلام عليكم ·

وصاح فيه أكثر من فارس :

ـ ألا تنتظر النتيجة يا عم ؟

وقال وهو يثنى عنان جواده شطر البلد :

ـ ولم ؟ ٠٠ ألم تعرفوا كل شيء عن عدوكم ؟ مادمتهم قد عرفتم نقط الضعف فى عدوكم فالنصر مضمون ٠٠ ليس لدى ما أقوله لكم بعد الآن غير كلمة واحدة : (حافظوا على صيتنا القديم) ٠

* * *

عندما وصل عم باشرى الى شاطىء النيل ٠٠ واستدار الى الجنوب جاعلا النيل على يساره فى طريقه الى (البغدادية) ٠٠ تناهت الى مسامعه زغرودة طويلة مجلجلة ٠٠ وابتسم ٠

ثلاثـــة
أصـــوات

نصف صوت

ماذا تقول ؟! ٠٠ لا ٠٠ أبدا ٠٠ الخلافات دبت بيننا منذ أول يوم ٠٠ فى اليوم العاشر لزواجنا حدث الطـلاق ٠٠ طلبت منى فاكهة ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ أجل ٠٠ الفاكهة التى يأكلها الناس ٠٠ قالت لى أن العادة جرت أن يدخل العريس وفى يده حقيبة ورقية ملأى بالفاكهة ٠٠ هكذا قالت ٠٠ أفهمتها اننى لا أمتلك من الدنيا غير قارب صغير أصطاد به الأسماك ٠٠ ردت على بأن الرجـال فى أسرتها اعتادوا أن يدخلوا البيوت بأكياس الفاكهة ٠٠ قالت انها هى نفسها لا يهمها الأمر ، لكنها تخاف القيل والقال ٠

أمام الحاحها اضطررت أن أدخل عليها يوميا بكيس فاكهة ٠٠ برتقال مرة ، ودوم مرة ، وجوافة مرة ، وجميز مرة ٠

وفى النهاية قالت لى لابد أن تحضر الفاكهة فى الصباح وفى المساء ٠٠ ألا تصدق ؟ ٠٠ اسأل الجيران ٠٠ كانوا يروننى أدخل عليها بالفاكهة يوميا ٠٠ من ٠٠ شيخ البلد ؟ ٠٠ آه ٠٠ هو ابن عمها ٠٠ حاول أن يتوسط بيننـا للصلح ، لكن الخـلاف كان قد

استحكم .. هو صديقى منذ زمن طويل .. ماذا ؟ .. أجل .. خمسة أفدنة ، ورثت نصفها عن أبيها ونصفها عن زوجها السابق .

متى رأيتها ؟ .. لا أذكر بالضبط .. لكن آخر مرة كنت فى زيارة شيخ البلد جلسنا فى مدخل بيته تحت السقيفة الصغيرة .. فجأة دخلت البيت .. كانت تتبختر كأنها بنت الملك .. شغلتنى طويلا أقول الحق .. أحب الجسم الممتلىء .

الزواج ؟ .. ربما خطر فى ذهنى عندما أرى فيها المرأة تبتسم لى ..

من ؟ .. هو صديقى منذ الطفولة .. قال لى ما رأيك فيها ؟ .. قلت له رائعة .. قال لى ما رأيك لو تقدمت اليها ؟ .. سألته أتوافق وهى الغنية ؟ .. لوح بيده وقال : الخالق فضل الرجال على النساء .

كل شىء تم فى أيام قليلة وبصورة عجيبة .. أنا أؤمن بالقسمة والنصيب .. لكن حكاية الفاكهة مزعجة .. دخلى لا يسمح بكيسين يوميا .. حينما عاتبتها طلبت الطلاق .. تصور ؟ .. امرأة تطلب الطلاق ؟ .. لا .. أبدا .. هى تعتقد أنها مادامت من أسرة شيخ البلد ، فمن حقها أن تطلب الطلاق .. لكن على من .. أنا لا أخضع لأحد .. ما أن طلبت الطلاق حتى كلته لها .. ملعون أبوها وأبو شيخ البلد .. صديقى ؟ .. هل تسبب فى المصائب غيره ؟ .. ما الذى كسبته غير أنى بعت نصف القارب فى تكاليف العرس ، وها أنذا أستعد لبيع النصف الثانى لمؤخر الصداق .. ونفقة طفلى الذى فى بطنها ! .

صـــوت :

هذا رجل مخادع ·· صدقني ·· يطمع في مالي ·· أنا امرأة غنية كما تعلم ·· حين تقدم لي لم أمانع ·· رغم الفارق الشاسع بيننا لم أمانع ·· منذ اليوم الأول سألني عن الأفدنة الخمسة ·

لما عرف أني أجرتها لابن عمي شيخ البلـد ، غضب غضبا شديدا ، لا ·· كنت قد وقعت العقد قبل الدخلة بيومين ·· هو طلب ذلك ، أعني ابن عمي ، خاف أن يطمع في طامع ·· فعلا ·· الشيخ كان يلح على تأجيرها له منذ زمن طويل ·· نعم ·· لهذا السبب غضب ·· لا تصدق حكاية الفاكهة ·· هذه الحكاية اخترعها هو ·· العادة ؟ ·· هذه العادة موجودة فعلا ·· أبناء منطقتنا لا يدخلون البيوت الا ومعهم أكياس الفاكهة ·· عادة قديمة في أسرتنا ·· قال لي لابد أن أحضر شيئا ولو أمام الناس ·· دخل أول يوم وفي يده حقيبة ورقية كبيرة ، فتحها أمامي فاذا هي رملة بيضاء ·· أجل ، رملة ·· ألا تعرف الرملة ؟

منطقتهم مشهورة بهذه الرمال ·· يريد ايهام الجيران بأنه لا يدخل بيده فارغة ·· كانت فضيحة ·· البيت امتلأ بالرمـال البيضاء ·· المصيبة أن تراب البيت لونه أسود ! ·· ماذا أقول لمن يدخل ويسأل عن سر الرمال البيضاء ؟! حينما أفهمته ثار ثورة جامحة ·· لم يهدأ منها الا بعد أن تسلم ورقة الطلاق من المأذون ·· ليكن ·· في ألف داهيـة ·· ابني منـه ؟ ماله ؟ ·· سينشأ في

حضنى ، أنا فى حاجة اليه ·· وسأحصل منه على نفقة على كل حال ·· على سبيل التأديب فقط ! ·

صوت ونصف :

من قال لك انها بنت عمى ؟ ·· أبدا ·· جدها الأكبر هاجر الى بلدنا وانتسب الينا ، هكذا كل ما فى الأمر ·· الزواج ؟ ·· وما دخلى ان كانت قد فشلت فى زواجها ؟ ·· أنا السبب ؟ ·· لماذا ؟ ·· هو فاتحنى فى أمرها فنقلت اليها رغبته ·· وافقت على الفور ؟ ·· أين خطئى هنا ؟ ·

هذا

* * *

ـ ابن عمى ·· نحن معرضون للفضيحة ·

ـ لماذا لا قدر الله ؟ ·

ـ ليلتنا الأخيرة أثمرت ·

ـ أتعنين أنك ···

ـ أجل انقذنى ! ·

* * *

هو كما تعلم صديقى ·· يستهوينى هذا الصنف البسيط من الناس ·· لاسيما انه كان يسلينى بدعاباته ·· كان يجلس بجوارى فى مدخل البيت ، وفجأة دخلت هى ·· ألقت علينا السلام ودخلت عند زوجتى ·· رأيت تغيرا ما حدث له ·· وسألنى ان كان تقدم اليها أحد بعد موت زوجها ·· ولما أجبت بالنفى سألنى ان كان فى

امكانه أن يتقدم ·· وعدته خيرا ·· حينما فاتحتها وافقت ·· هذا كل ما فى الأمر ·· أين خطئى هنا ؟

***

ـ اسمعى ·· سأستدعيه لزيارتى كالعادة ، وحينما تدخلين ، وجهى اليه نظرة !

ـ نظرة !

ـ أجل ·· نظرة من نظراتك ، تلك التى لا تقاوم !

ـ لكن ··

ـ نفذى ما أقوله لك ·· والباقى على ·

* * *

بعد الزواج حسبتهما سعداء ·· كانت تذبح له يوميا بطـا ودجاجا ·· وكان هو يجمل البيت بالرمال البيضاء التى اشتهرت بها منطقتهـم ·· فوجئت بالخلافات تدب بينهمـا ومن ثم حدث الطلاق ·· فما دخلى أنا ؟ ·· أرضها ؟ ·· هى التى طلبت تأجيرها لى ·· لم أوافق الا لحمايتها من الطامعين ·· وعلى كل حال أنا مستعد لاعادتها بعد انتهاء السنوات السبع التى نص عليها العقد ·· كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ! ·

الغضب

تلاشت ظلال النخيل عندما ابتلع الجبل الغربى قرص الشمس ‥ هجمت جحافل الظلام من جهة الشرق كأنها جيوش المغول ‥ اصطدمت طلائعها ببيوت القرية السمراء فموهتها فى همجية ‥ من بعيد ظهرت غابات النخيل كأنها الليل فى داخل الليل ‥ كل شىء ساكت والظلام زاعق ‥

جلست « عائشة » أمام موقد النار ، تدير بيدها عصا صغيرة من « البوص » فى اناء فخارى وضع على النار ‥ بجوارها اتكأ الشيخ عبد الباسط على الجدار الشمالى وقد افترش تحته سجادة صغيرة ‥ مد ذراعه على طولها لغلام فى السادسة وراح يبتسم له وهو يصارعها فى استماتة ‥ تركت عائشة « البوصة » ومدت عنقها تنظر الى السماء ‥ رأت نجمتها المعروفة فى مكانها المعهود ‥ ابتسمت قليلا وكأنها ترد تحيتها ‥ لكنها ما لبثت أن عبست وصاحت فى ذعر :

ــ الليل دخل ٠٠

لم يرد عليها الرجل ٠٠ كان مشغولا بمعابثة الطفل ٠٠ صاحت المرأة فى انزعاج :

ــ حسن لم يأت ٠٠

تيبست ذراع الرجل الممدودة للطفل ٠٠ التفت اليها بعينين جاحظتين وحاجبين مرفوعين :

ــ هه ؟

ندت عليه بطريقة توحى بالهلع أكثر مما توحى بالتساؤل ٠٠ لكنه سرعان ما أدرك أن انزعاجه سيضاعف من انزعاج المرأة ٠٠ فكسا تعبيراته بشىء من الحزم وان كان داخله جاحظا ٠

وقفت المرأة ٠٠ نظرت الى السماء :

ــ لماذا ؟

قالتها وهى تهرول فى اتجاه البوابة الكبيرة ٠٠ فتحتها ووقفت فوق العتبة تحدق فى الظلام وصدرها يعلو ويهبط ٠٠

تبعها الرجل وهو يلف عباءته الخشنة حول كتفيه فى عجلة ٠٠ وقف بجوارها فوق العتبة ٠٠ أحست به رغم الأصوات العالية المنبعثة من داخلها ٠٠ هرولت فى الساحة الواسعة فى اتجاه البيت المواجه لها ٠٠ ضربت « ضبة » الباب فى عصبية وانزعاج ٠٠ جاءها الصوت الناعم المطوط متسائلا من الداخل :

ــ من ؟

قالت فى سرعة ولهوجة :

ــ أنا عائشة ٠٠ هل جاء أحمد ؟

ـ أهلا عائشة ·· ادخلى ··

ـ هل جاء أحمد ؟

فتح الباب وأطلت منه امرأة فى الأربعين ·· انسكب معها شعاع ضوء خافت لمصباح غازى ·· لمحت الجارة طيف الشيخ عبد الباسط وهو يقترب ·· أحكمت الخمار حول وجهها :

ـ هل جاء احمد ؟

اهتزت أهداب الجارة لرنة الصوت المرتعشة :

ـ نعم ·· جاء ·

ـ جاء ؟ ·· جاء ؟ ·

قالتها عائشة فى صراخ وولولة ·· هرولة الأقدام من الداخل ·· سبقها شـاب فى العشرين يرتدى قميصاً أبيض فوق السروال الطويل ·· وقف فوق العتبة وراح يحدق فى عائشة التى انهمكت فى الصراخ ·· سألته أمه :

ـ ألم تر حسن ؟

ـ كان معى فى العصر ·

ـ أين ؟

ـ عند جنينة الحاج علوان ·

ـ وأين ذهب بعدها ؟

ـ كان ···

ـ تكلم !

كان يسن حربته ويقول انه سيقتل الضبع ·

صرخت عائشة صرخة مروعة بمجرد سماعها كلمة الضبع :
ـ يا خراب بيتك يا عائشة ٠

انفجرت البوابات المطلة على الساحة فى لحظة واحدة ٠٠ لفظت ما فيها من رجال ونساء وأطفال ٠٠ تحولت همهماتهم الى ضجة وهم يتزاحمون ٠٠ وضع الشيخ عبد الباسط يده على كتف الشاب وسأله فى هدوء ظاهرى :

ـ أين كان هذا ؟

تلعثم الشاب ٠٠ أحس برعشة الكف فوق كتفه وتلعثم :

ـ عند الـ ٠٠ جنينة ٠٠ جنينة الحاج علوان ٠

ـ وما حكاية الحربة ؟

ـ كان يسنها على حجر المعصرة ٠٠ و ٠٠ كان ٠٠

ـ من أين جاء بها ؟

ـ ماذا ؟ ٠٠ لست أدرى ٠٠ صنعها له الحداد !

ـ ماذا قال لك بالضبط ؟

ـ قال سأقتل الضبع ٠

ـ هل رأيته يعبر الترعة فعلا ؟

ـ لا ٠٠ ولكنه قال سأعبرها ٠

ـ وأين ذهب بعد أن سن الحربة ؟

ـ هو لم يذهب ٠٠ أنا تركته مكانه وجئت ٠

امتدت يد خشنة الى كتف الشيخ عبد الباسط ٠٠ ربتت عليه بلطف :

ـ اهدأ يا شيخ عبده ٠٠ الحافظ موجود ٠

أثارت الكلمة أكثر مما هدأت ٠٠ أطلقت عائشة عدة صرخات امتلأت الدروب على أثرها بالبشر ٠٠ تدفقت جموعهم على الساحة فى غزارة ٠٠ كان صوت المرأة الصارخ يردد بلا انقطاع « ابنك ضاع يا عائشة » وسيل الوافدين لا ينقطـــع ٠٠ امتلأت الساحة ففاضت بمن فيها ٠٠ صب الفيضان فى الدرب المؤدى الى الحقول فى موكب كبير متزاحم ٠٠ تتقدمه الفوانيس والمشاعل وامرأة تلطم خديها وصراخها يشق الفضاء ٠٠ وراءها مباشرة طفل فى السادسة يبكى فى هلع ، يمسك بيده رجل أشيب فى الستين انحنى ظهره ـ لأول مرة ـ منذ لحظات ٠

ثمة رجلان خلف الموكب يتحاوران ٠٠ قال الطويل للقصير فى نبرة ساخرة خافتة :

ـ ابن عبد الباسط ٠٠ يقتل الضبع ؟

رد القصير فى لهجة جادة :

ـ الولد شجاع ٠٠

ـ ابن عبد الباسط ؟

ـ نعم ٠٠

ـ ماذا أخذنا منه غير التعرض لبرد طوبة ؟

ـ أرجو أن نجده بخير ٠

ـ شيخ الخفر نفسه لم يستطع أن يفعل شيئا للضبع ٠

ـ ربنا يستر ٠٠

ـ ربط الخروف فى النخلة مع غروب الشمس ، ورقد على بطنه

موجها ماسورة البندقية الى الخروف ٠٠ ولما جاء الضبع ترك الخروف واتجه اليه ٠

ابتسم القصير على الرغم منه قبل أن يسمع بقية القصة ٠٠ وأكمل الطويل فى لهجة من اعتاد المزاح :

ـ وحضرة جناب سعادته بدل أن يقتل لنا الضبع ٠٠ جاءنا من غير بندقية ٠

ـ نكتة ٠٠

ـ النكتة الجديدة هى ابن عبد الباسط

ـ الولد شجاع ٠٠

ـ قلنا هذا على شيخ الخفر ٠٠ فماذا كانت النتيجة ؟ ٠٠ آخر محاولاته كـانت فى رفع جذوع النخل من فوق الترعة ليفصلنا عن البر الشرقى ٠٠ خياله وصل الى أن الضبع سيترك حقول القصب فى البر الشرقى ويتبعه الى « النجوع »

ـ لكن الولد شجاع

ـ وما الذى يدريك ؟

ـ أنا الذى صنعت له الحربة ٠

ـ أنت ؟

ـ هس !

مرت فترة صمت سمعا خلالهـا صراخ المرأة المبحوح يأتيهمـا من بعيـد

ـ كنت أصنع بعض المناجل عندمـا جاءنى بحديدة غليظة ٠٠ مدها لى وقال ان وجود الضبع جلب لنا العار ٠

ـ عار ؟

ـ بعض الشبان من البلاد الأخرى عيروه بأن بلدنا تنام من المغرب خوفا من الضبع ٠

ـ من أى بلد هم ؟

ـ من السوالم ٠٠

ـ بلد ليس فيها رجل واحد !

ـ فعلا ! ٠٠ وقولهم اغضبه جدا ٠٠ فصمم على قتل الضبع ٠٠ كان يكلمنى وشفتاه ترتعشان ٠٠ لم ينتعش الا بعد أن حولت الحديدة أمامه الى حربة

ـ أرجو أن نجده بخير

ـ ربنا يسمع منك ٠

* * *

بدت حقول القصب فى البر الشرقى واضحة للعيان ٠٠ انتشرت القرية كلها بين الجسور والقنوات والحدود الفاصلة بين الحقول ٠٠ المشاعل والفوانيس حولت الليل الى نهــار ٠٠ الكل يبحث فى لهفة والهمهمات تدعو الله فى السر والعلن ٠٠ الحراب والعصى الغليظة تضرب أعواد القصب هنا وهنــاك ، والعيدان تميل فى اعتذار ٠٠ توقع البعض أن يظهر الضبع فجأة ، لكن الكثرة والاصوات الصاخبة غلبت الاحساس بالأمان ٠٠ فجأة صدرت صرخة مكتومة من الطرف البحرى هرولت على أثرها الاقدام ٠٠ وتكررت الصرخة من اكثر من صوت وزاد دبيب الاقدام ٠٠ وهوت بعض الاجسام وهى تجرى نحو

مصدر الصرخة فتحطمت من القصب اعواد ٠٠ واتسعت حلقة حول الصارخين ٠٠ وعلا الصراخ ٠٠

❊ ❊ ❊

كان الشاب يرقد على ظهره وحربته فى يده ٠٠ قبض عليهـا بشدة فتصلبت فيها قبضته ٠٠ تمزقت ملابسه أسـفل الصدر ، واصطبغ جلبابه الأبيض بالدم فى الجانب الأيسر ٠

كان يرتسم على وجهه هدوء عجيب ٠٠ عض بأسنانه على شفته السفلى فبدا وكأنه يغالب الابتسام ٠٠ انزاحت عمامته على جانب وجهه فغطت احدى أذنيه فبدت وكأنها تدل على أناقة المعتد بنفسه ٠٠

انتحب كل من أطل فى وجهه ، وتكأكأ عليـه الكثيرون ٠٠ وتضاعف الصراخ ٠٠ وراح بعض كبار السن يزيحونهم بعيدا عنه ويرددون فى حزم : « وحدوه ٠٠ كله فانى » ٠

ولم تستطع الأم أن تصل اليه بصراخها ٠٠ امتدت اليها عدة أذرع فشلت حركتها ٠٠ ووقف الأب بعيدا يحاول تخليص نفسه ممن حوله دون جدوى ٠٠ وانحنى رجل كبير السن على الشاب يغلق عينيه ويتمتم : « انا لله وانا اليه راجعون » ٠

وعلا صراخ فتاة جميلة فى السادسة عشرة ٠

❊ ❊ ❊

أبت الحربة أن تترك يد صاحبها ٠٠ حاولت الأصابع فى رفق تارة وفى شدة تارة أخرى فلم تذعن الحربة ولم تلن ٠٠ قال أحدهم

فى يأس : « سخنوا ماء » ·· وصاح شاب عارى الرأس فى ذعر :
ــ الضبع مجروح ··

حدقت الأعين فى طرف الحربة على الفور ·· كأنها مصابيح كاشفة وضحت على نورها عدة شعرات غامقة حول كتلة قانية من الدم ·· صرخ الشاب مرة أخرى وهو يشير الى طـرف الحربة ويتلفت حوله :

ــ الضبع مجروح ·

ترددت الكلمة فى حقول القصـب اللانهائية فتوقف الصراخ والنحيب فى لمح البصر ·· دهشت وجوه ولمعت عيون ·· ارتفعت النبابيت وشرعت الحراب ·· انتشرت المشـاعل على الجسـور والقنوات فأحالت الليل الى نهار ·

وبدأ البحث من جديد ·

العُقاب

قال عباس بن ميسرة :

ـ حضرت معركة (العقاب) التى دارت بيننا وبين الرومان ، فى بادية الشام ‥ فى مقدمة جيش الرومان فرقة يسمونها الفرقة القيصرية ‥ كانت أشد علينا من البلاء اذا نزل أو القضاء اذا وقع ‥ بدأ القتال فى يوم ريح سموم كحمارة القيظ ‥ فى الصدمة الأولى نكصت خيل العرب على أعقابها لا تلوى على شىء ‥ ثبت مكانى مع بضعة فرسان من صناديد اليمن ‥ أيقنا أن الحشر فى هذا الموضع ولا حول ولا قوة الا بالله ‥ فجأة سمعت ياسر التميمى يستغيث : « العقاب يا معشر العرب ‥ أدركوا العقاب يا أهـل النجدة » ‥ دفعت بجوادى نحوه فى التو واللحظة ‥ فاذا بى أجـد كوكبـة من فرسـان الروم يحدقون به احداق بياض العين بسوادها ‥ يحاولون اسقاط العقاب ـ راية العرب الكبرى ـ مد يده ‥ وهو يدافعهم مدافعة شديدة ويصرخ ويستغيث ‥ فقلت ضاع العقاب ورب الكعبة ‥ ان هو الا العار والشنار فى أشـعار الشعراء وحديث المجالس ‥ فأردت أن أوهم القوم بأننى على

رأس كتيبة من الفرسان ٠٠ فصحت بأعلى صوتى : « أبشر يا ياسر ٠٠ جاءتك نجدات من فرسان عبس وذبيان ٠٠ وقيس وكهلان » ٠٠ ولم يصدقنى أحد ! ٠٠ ما هى الا اللحظة حتى برز لى فارس من فرسان الروم ٠٠ عظيم الجثة كأنه الجبل ٠٠ على رأسه خوذة فوقها حلية كعرف الديك ٠٠ ضربنى بعمود من حديد ضربة تزلزل لها الترس فى يدى ٠٠ وكأن قوائم جوادى غاصت فى الأرض ٠٠ بعدها سمعت صياح (عكرمة) ـ يرحمه الله ـ على رأس فرسان العراق ٠٠ ولم أدر ماذا حدث بعد ذلك ٠٠ فتحت عينى فوجدتنى راقدا فى بيتى ٠٠ وقومى من حولى يضمدون جراحى ٠

* * *

قال عامر بن الأيهم الغسانى :

لما أردت تأليف كتابى (الوقائع المهمات ٠٠ فى أيام الملمات) ٠٠ دخلت المسجد الجامع بالبصرة ٠٠ وسألت : يا قوم ٠٠ من من الأحياء ممن شهدوا يوم العقاب نستقى منه الأخبار ؟ ٠٠ فرد على الشاعر الماجن الأبرص بن الأبرص بن بن الأبرص ٠٠ قائلا : « عليك بالبهرجان بن واصل فعنده الخبر اليقين » ٠

وجمعت أوراقى من ساعتى وركبت الى فيافى بن حنظلة ٠٠ واستقبلنى البهرجان بن واصل استقبال الكرام ٠٠ ذبح لى شاة وجلس يروى من ساعته ٠٠ ومع أنه جاوز الثمانين الا أنه يمتلك عافيته ٠٠ لكننى لم أكن أعرف أن به لوثة ٠٠ تربع أمامى على بساط فارسى وصفق بيديه وقال :

كان يوم العقاب له ما بعده ، تحطمت فيه السيوف ، وكسرت التروس ، وقصفت الرماح ، وجندلت الأبطال ٠٠

توسطت الشمس قبة الفلك ، وفتحت علينا طاقة من طاقات جهنم ·· وما هى الا الصدمة الأولى من الفرقة القيصرية ، حتى رأيت خيل العرب تولى مذعورة ، وكأن مارد من الجن طلع عليها ·

وحاول فرسان العراق ــ وعلى رأسهم عكرمة يرحمه الله ــ أن يصدوا القوم ، فلم يتمكنوا ·· جرفتهم الخيــل المنهزمة ، وابل الاعــراب المذعورة ، فحملتهم الى المضــارب ·· فصحت بأعلى صوتى : « هذا يوم الهزائز ·· لا يثبت فيه جبان ولا عاجز » ·· وألقيت بالرمح من يدى ، فهذا ليس يوم الرماح ·· جردت سيفى من غمده ، وضربته ناحية اليمين فأطاح بعشرة رؤوس ، وضربته ناحية اليسار فسقطت خمسة رؤوس ·· وكان جوادى « الأشعث » يعرف طباعى ·· فصهل صهلة عربية تفرق لها الروم من حولى ·· فأعجبنى ذلك ·· فترنمت بشعر عنترة :

« حصانى كان دلال المنايــا
اذا دخل القتال شرى وباعا »

وبينمــا أنا أصول فى القوم وأجول ، وأنثر الرؤوس على الأرض كما يذر الزراع الحب ·· اذا بفارس من فرسان الروم يلبس على رأســه تاجا ، ويحرض القوم على القتــال باللســان الرومى ·· فعرفت أنه كبيرهم ·· فحملت عليه حملة من حملاتى التى يعرفها العرب والعجم ·· فتصدى لى ثلاثة من فرسانهم ، يمنعوننى من الوصول اليه ·· فقلت لهم ــ وقد استشطت غضبا : والله و وبالله ، وتالله ·· لأميتنكم ميتة لم يسمع بها أحد ·· وهذا ما حدث وأيم الله ·· مددت يدى اليسرى فخطفت أولهم من فوق ســرجه وضربت به الثانى ·· فسقطا معــا على الأرض وماتا لســاعتهما ·· ورفعت الثالث الى أعلى من رأسى ، وجلدت به الأرض ، فدق عنه فى الحــال ·· ولـمـا رأى كبيرهم منى ذلك

عرفنى ٠٠ فتوسل الى قائلا : « رحماك يا أبا حنظلة ٠٠ رحماك » ٠٠ فقلت له : « لا رحمة بعد اليوم ٠٠ أنا لا أرحم من يتهجمون علينا فى ديارنا » ٠٠ وما هى الا لحظات وأيم الله ، حتى كان مجندلا تحت أقدام جوادى ، يخور فى دمه ، كما يخور الثور ٠

❋ ❋ ❋

قال عامر بن الأيهم الغسانى مؤلف كتاب (الوقائع المهمات ٠٠ فى أيام الملمات) : قلت للبهرجان بن واصل : « يا أبا حنظلة ٠٠ أنا لا أسألك عن هذا ٠٠ فنحن نعرف قدرك وشدة بلائك ٠٠ ولكننى أسألك عما حدث بعد نكوص خيل العرب ، ومحاولة الروم اسقاط العقاب من يد ياسر » ٠

فصفق بيديه وقال : اعلم يرحمك الله أن يوم العقاب كان يوما قمطريرا ، تقنطرت فيه خيل الروم قناطير قناطير ٠٠ ولت خيـل العرب ووقفت وحدى أدافع عن ياسر وعقابه ٠٠ كنت أجندل فى الفرسان والأبطال ساعة سمعت استغاثته ٠٠ فركضت نحوه بجوادى ركضة حنظلية بهرجانية ٠٠ فرأيت الرومان يدورون حوله دوران السوار بالمعصم ٠٠ فصحت فيهم : « أتركوا العقاب يا أعـلاج بنى الأصفر » ٠٠ فبهتوا من صيحتى ٠٠ ولما أفاقوا لأنفسهم ، تركوا ياسر وعقابه واتجهوا جميعهم نحوى ٠٠ فجردت سيفى من غمده ، ورحت أحصدهم به حصدا ، وأفتك بهم فتكا ذريعا ٠٠ وأعجبنى ذلك وأيم الله ٠٠ فترنمت بشعر عنترة :

« وسيفى كان فى الهيجا طبيبا
يداوى رأس من يشكو الصداعا »

ثم وصل عكرمة ــ يرحمه الله ــ على رأس فرسان العراق ٠٠

لكنه وصل متأخرا ٠٠ فقد كنت قد أجهزت على أكثر القوم ، حتى أن جوادى كان يخوض فى الدماء وأيم الله ٠

❊ ❊ ❊

قال عامر بن الأيهم الغسانى :

لما وصلت الى هذا القدر من حديث البهرجان بن واصل ٠٠ كرهت أن أسمع بقية حديثه ، فقد أيقنت أن بالرجل لوثة ٠٠ فركبت راحلتى وقصدت البصرة وأنا فى حالة من غيظ ٠٠ عزمت على أن أنهال بالسوط على الأبرص بن الأبرص ، ذلك الشاعر الفاسق الماجن الذى سخر منى ٠٠ ودخلت المسجد الجامع ، فلم أجده ، وجدت أستاذ الحديث بالبصرة ٠٠ سعيد بن صفوان ٠٠ ورويت له ما حدث ٠٠ كما حدثته عما رواه لى البهرجان بن واصل ٠٠ فضحك أستاذ الحديث حتى كاد يستلقى على قفاه ٠٠ وقال : « يغفر الله لك يا أبا حنظلة ٠٠ كبرت وخرفت وزادت لوثتك » ٠٠ ثم قال لى : « ان كنت تريد أن تتحقق من يوم العقاب ، فعليك بالقاهرة المحروسة » ٠٠ قلت : « من تقصد ؟ » قال : « ابن عكرمة » قلت : « وهل لعكرمة يرحمه الله ابن ؟ » قال : « نعم ٠٠ وقد شهد الوقعة مع أبيه ، وكان اذ ذاك فتى دون الثالثة عشرة » ٠

❊ ❊ ❊

خرجت من البصـرة يوم الخميس لثـلاث بقين من جمادى الآخرة ٠٠ وفى الطريق استضافنى عمرو بن سلول فى (حصن الكرك) ٠٠ وكان اذ ذاك قائدا لشرطته ٠٠ ولم أكن أعرف أن أباه قد شهد « يوم العقاب » ٠٠ فما أن عرف مهمتى وجاء ذكر البهرجان

ابن واصل حتى اربد وجهه وظهر عليه الغضب وصاح : « وهل تسبب فى الهزيمة غير البهرجان بن واصل عليه لعنة الله ؟ » قلت : « كيف كان ذلك أصلح الله أمرك ؟ » ·· قال وهو يحول وجهه عنى : « لا أحب أن أخوض فى حديث يوم أكرهه » قلت : « لا ·· وحق من سمك السماء وبنى بناكم عالى الدعائم الا تكلمت » ·· قال فى تأفف : « كان للروم فرقة يسمونها القيصرية ·· جمعوا فيهـا الأقوياء من فتيانهم بعد أن علموهم أحسن فنون القتال ·· فكانوا يصطفون — كما قال أبى — كالبنيان المرصوص ·· حتى اذا ما حانت لحظة الحملة ، هجموا هجمة رجل واحد ، فلا يقف فى وجههم أحد ·· بينما كان جيش العرب يتألف من قبائل شتى ·· وعلى كل قبيلة رئيسها يقاتل بها على حدته ·· فأشار عكرمة — يرحمه الله — على رؤساء العشائر أن يؤمروا عليهم أميرا ·· فوافقوا ·· وأرادوا أن يختاروه هو لما عرف من اخلاصه ودرايته بقتال الروم ·· لكن البهرجان عليه اللعنة أبى واستكبر ·· قال : (أنا لا أرضى أن يؤمر على) ·· فأشـار عكرمة — يرحمه الله — أن يؤمروا البهرجان على أن يتركوا له قيادة الخيل ·· فرفض البهرجان الا أن تقاتل كل قبيلة برئيسها ·· أراد أن يظهر عشيرته على سـائر العشائر ·· فقد كانت تزيد في عددها على كل العشائر مجتمعة ·· فطلب عكرمة أن يكون البهرجان أمير الجيش وقائد الفرسان ، على أن يسمح له بتوزيع الفرسان عند بدء القتال ·· فأصر البهرجان على رأيه ·· كان يخشى أن ينسب الفضل لعكرمة ·· وبدأ القتال والناس بلا أمير ·· وكان ما كان مما تعرفه ·

قلت : « ثم ماذا ؟ « قال فى تأفف : « لا شىء » ·

قلت : « أكمل روايتك » قال : « قد فعلت » قلت : « هذا عن قبل بدء القتال ، فماذاعن سير القتال ؟ » قال : « لا علم لى » قلت :

« كيف ·· ألم يشهد أبوك الموقعة ؟ » قال فى ضجر : « أبى شهد ما قبل الموقعة ·· فما أن هجمت خيل الروم ، حتى جرفته الخيل المنهزمة ووقع تحت سنابكها ·· ولم يمكث غير يومين اثنين ·· قضاهما فى لعن البهرجان » ·

* * *

حينما دخلت القاهرة المحروسة ·· هالنى أن أجدها تغص بالخلق ·· مساجدها لا موضع فيها لقدم ، ودور لهوها تعج بالناس ··· قلت هذه حاضرة الدنيا وكبرى المدائن ·· لله فيها جانب لا تضيعه ، وللهو فيها والخلاعة جانب ·· ووالله لم أستدل على بيت ابن عكرمة الا بعد جهد جهيد ·· وعجبت ·· كيف يرضى لنفسه بهذا البيت الصغير فى طرف المدينة ، وهو ما هو وأبوه عكرمة ؟ ·· فلما قلت له ذلك ابتسم وقال لى : « ألا تعلم بأن أهل السيف ما ينبغى لهم أن ينغمسوا فى الترف يا ابن الأيهم ؟ » ·· قلت له : صدقت ·· ولكن ألا يستحسن أن تعرف لنفسك قدرها بدلا من هذا البيت الذى لا يعرفه أحد ؟ ·· فأطرق برأسه ولم يرد ·

قلت : « اذن ·· حدثنى عن يوم العقاب » ·· فقال وقد ظهر عليه الأسى :

« حينما عرف أبى بأمر الفرقة القيصرية ، درب فرسان قومنا على طريقة جديدة فى الكر والفر ·· ولما حانت اللحظة ، وصفت الصفوف يوم العقاب ·· أراد أبى أن يجمع فرسان العشائر فى صعيد واحد ·· فأبى البهرجان اباء شديدا ·· قال : « شجاعتنا تكفى ·· وقد قاتلنا الروم من قبل » ·· فقال لى أبى : « القوم غيروا من طريقتهم القديمة ·· وان لم نوحد الفرسان ، ونفعل فعلهم فلن نعنى شيئا » ·· وانقسم الناس ·· البعض يرون رأى أبى ، والبعض يوافق البهرجان ·· وتصايحوا فيما بينهم ·· وضرب بعضهم

نغنى

وجوه خيل بعض ·· تنابذوا بالألقاب ، حتى لتخال أن الناس قد خرجوا للصياح وليس للقتال ·· وصدمتنا خيـل الروم صدمة عنيفة ، فتطايرت خيل العرب تطاير الحمام ، حتى أنك لترى الفارس ينكض بجواده ، فيصطدم بأخيه صدمة عنيفة فيقـع الفارسـان والجوادان ·· لا نفعت عبس ولا تميم ، ولا ثبتت قيس ولا طيء ·· لم يثبت غير بضعة فرسان هنا ، وبضعة رجال هناك ·· كانوا لتفرقهم كالنقط البيضاء فى جلد الثور الأسود ·· وكنت أقف بجوار أبى فى بضعة فرسان من قومنا ·· ولم يكن ساعدى قد اشتد بعد ·· كنت أحتمى بأبى كلما حمى الوطيس ·· ولما رأى بعض المنهزمين ثباتنا ، عادوا والتفوا حولنا ، وتجمع منهم بضع مئات من قبائل شتى ·· وفجأة سمعنا ياسر التميمى يستغيث ولا مغيث ·· تلفتنا حولنا فرأيناه ، على مرتفع من الأرض ، يفصلنا عنه فرسخ ، يدافع عن عقابه دفاع المستميت ·· فصاح أبى فيمن حوله : « العقاب ·· العقاب » ·· فقال له بعض شيوخ قومنا أن لا أمل فى نجدة العقاب ، فبيننا وبينه بحر متلاطم من الروم ·· فصاح فيهم أبى : « لن أغلب على أمرى مرة أخرى » ·· ثم رفع يده ونادى : « من يبايع على الموت ؟ » ·· فبايعه أكثر من سبعين واحدا أكثرهم من فرسـان العراق ··

كان ـ يرحمه الله ـ يعتقد أن صمود العقاب سيعيد الخيـل المنهزمة ، بعد أن يبلغ فرارها نهايته ·· سقوط العقاب معناه أن لا أمل فى رجعة أحد ·· وواله يا ابن الأيهم ·· لقد رأيت هؤلاء الرجال حول أبى يندفعون كعاصفة هوجاء لا تبقى ولا تذر ·· رأيتهم يتسابقون ، وقد ركبوا أطراف الأسنة ، كل يريد أن يموت قبل صاحبه ·· راحوا يتساقطون الواحد بعد الآخر ، وخيل الروم قد ركبها الفزع فأفسحت لهم الطريق ·· وما هى الا ساعة حتى جاءنى أحدهم ، ووضع يده على كتفى وقال : « استرجع يا فتى »

قلت : « انا لله راجعون » قال : « استغفر لأبيك » فعلمت أن أبى قد مات ٠

حينما وصل ابن عكرمة الى هذا الحد من حديثه ٠٠ اختنق صوته وسكت ٠٠ فقلت : « هل أهجت أحزانك يرحمك الله ؟ » ٠٠ قال : « نعم يا ابن الأيهم » قلت : « كل نفس ذائقة الموت » قال : « ما لهذا أحزن» قلت : « لم اذن ؟ » قال : « حينما رفع أبى يده يطلب البيعة على الموت ٠٠ لم أرفع يدى مع من رفع ٠٠ لست أدرى لماذا يا ابن الأيهم ٠٠ ربما كنت فى دهشة من أمرى ٠٠ فنظر أبى فى وجهى طويلا ٠ لست أدرى كنه هذه النظرة ٠٠ أكان يعاتبنى ؟ ٠٠ أكانت نظرة غضب ؟ ٠٠ أكان يشفق على ويبارك احجامى ؟ ٠٠ ليته تكلم ٠٠ ليته قال كلمة تريحنى ٠٠ لم يقلها ٠٠ اندفع بجواده كريح عاتية دون أن يقولها ٠٠ لبثت فى مكانى برهة كالمشدوه ٠٠ ثم اندفعت وراءهم ولكن بلا جدوى ٠٠ كانوا قد أوغلوا فى القوم وابتعدوا ، ولا حول ولا قوة الا بالله » ٠

قلت : « هون عليك يا فتى ٠٠ هون عليك » ٠٠ فرفع رأسه وقال : « أتدرى ما الذى أعيش من أجله يا ابن الأيهم ؟ » قلت : « ما هو يرحمك الله ؟ ٠٠ قال : « أن يصهل جوادى فى يوم ريح سموم ٠٠ وأرفع يدى الى أعلى ٠٠ وأنادى : « يا عكرمة ٠٠ هذه بيعتك » ٠

في انتظار
الخضـــرة

محمود الدراوى سأل عليك ··

ــ متى ؟ ··

ــ مع غروب الشمس ··

ما الذى جاء بمحمود الدراوى فى هذا الوقت ؟ ·· موعده دائما عند حصاد القمح أو نهاية البرسيم ليحصل على أرباح عجوله وايجار أرضه ·· ما الذى أتى به على غير موعده ؟ ·· ماذا تقول له عندما يسألك عن « العجلة » ؟ ·· أتقول انك بعتها ؟ ·· أين نقودها اذن ؟ ··

يبدو انك ستتعرض لفضيحة لا يعلم مداها الا الله ·· لكن ·· ألا يحتمل أن يعذرك الرجل ويصبر عليك حتى تبيع « البلح » وتعطيه ثمنها كما كنت تنوى أن تفعل ؟ ·· يصبر ؟ ·· محمود الدراوى يصبر ؟ ·· ذلك الجهورى الصوت المولع بالفضائح الذى لا اله له

غير الجنيه ٠٠ يصبر ؟ ٠٠ ماذا ستقول له عندما يغضب ويهتز شاربه ؟

ضاعت فصاحتك القديمة يا حسن ٠٠ ضاعت ٠٠ منذ رهنت أرضك وعدت لزرعها بالايجار وأنت تتلجلج كلما هممت بالكلام ٠٠ انتهيت يا حسن بعد أن كنت « نوارة » قبيلتك ٠

ـ يا شيخ الجعافرة ٠٠ يا نوارة قبيلتنا ٠

ـ يا أهلا ٠٠

ـ جئتك بعد أن ضاقت الدنيا وعز الأصحاب ٠

ـ وأين أنا اذن ؟

ـ أجمل ما فيك بشاشتك ٠٠ كأنك ستأخذ !

ـ ادخل فى الموضوع ٠

ـ ربنا يحفظك يا نوارة القبيلة !

ـ يا راجل ادخل فى الموضوع ٠٠

ـ ادركنى بحمل تبن ! ٠٠

ـ تبن ؟ ٠٠

ـ وشوال بصل !

ـ بصل ؟ ٠٠

ـ وقدح بلح !

ـ بلح ؟ ٠٠

ـ فقط !

ـ انت طماع ··

ـ وانت نوارة القبيلة !

لم يعد أحد يناديك بهذا الاسم ·· ولم يعد أحد يقصدك ·· أعطوك ظهورهم يا حسن ·· المشفقون والشامتون ·· وماذا تدرى عما يقال وراء ظهرك ؟ ·· انك لا تدرى ·· كل الذى تدريه أن الكلام الجميل الذى كان يقال فى حضورك قد انقطع ·· وأين زوارك ممن يطلقون على أنفسهم اسم « الأعيان » ؟ ·· أين العمد ومشايخ القبائل ومناقشاتهم فى « ديوانك » حتى منتصف الليل ؟

ـ أبى ·· هؤلاء ناس كبراء ·· الأفضل أن نشترى أربعة أرطال لحم ، ونعمل لهم فاصوليا وبطاطس وأرز ومكرونة وسبانخ !

ـ ولماذا كل هذه الأشياء ؟

ـ فى « مصر » يفعلون ذلك ويوفرون الكثير !

ـ وهل نحن فى « مصر » ؟!

ـ لا ·· ولكن لنوفر ·· وليعرفوا اننا لا نقل تمدينا عن أهل « مصر » !

ـ دع أهل «مصر » فى حالهم ·· وافعل لهم كما يفعل الجعافرة يا ولد !

ـ لكن ···

ـ لا تقل لكن ·· قم اذبح الخروف الأسود ، واملأ القدر الكبير بالمرق !

***

ـ محمود الدراوى سأل عليك ·

ـ أنا عارف !

***

ماذا ستقول له ؟ ٠٠ هل تقول له انها ماتت ؟ ٠٠ مستحيل ! ٠٠ المفروض انك جررتها الى النيل لو انها ماتت ٠٠ وان هناك من شدوها معك ٠٠ وهناك من رأوها ٠٠ فمن هم ؟ ٠٠ أتقول انك بعتها ؟ ٠٠ هه ؟ ٠٠ فى المرة الماضية قلت له انك بعتها ٠٠ ودفعت له ثمنها من نقود البلح وأعطيته ربحها ٠٠ أعطيته الربح دون أن تربح يا حسن ٠٠ مر الأمر دون أن يحس به أحد ٠٠ لكن ماذا ستقول له الآن ؟ ٠٠ بعتها فى غير موعدها قبل نهاية البرسيم ؟

ـ أنا بعتها والله يا شيخ محمود ٠٠

ـ بعتها ؟ ٠٠ متى ؟

ـ يوم الخميس ٠٠

ـ ولماذا لم تستأذن منى ؟

ـ أنا وانت واحد !

ـ نعم ٠٠ لكن ٠٠ قصدى ٠٠ نعم ٠٠ واحد ٠٠ واحد !

ـ سأعطيك ثمنها بعد شهرين ٠

ـ شهرين ؟

ـ عندما أبيع البلح !

ـ أى بلح ؟ ٠٠ النخل لم يطرح بعد !

ـ المهم سأعطيك ثمنها قريبا ٠

ـ الله الله يا حسن يا جعفرى ٠٠ لقد أصبحت منهم !

ـ منهم ؟! ٠٠ من هم ؟!

ـ ألم تسمع ؟

ـ ماذا ؟

ـ محمود الدراوى ·· شارك حسن الجعفرى على عجلة ·· فباعها ·

ـ سمعت ··

ـ ما رأيك اذن ؟

ـ نوارة القبيلة ·· هأ ·· هأ ·· هأ ! ·

لا ·· لا ·· لا ·· لن أقول له اننى بعتها ·· أبدا ·· لكن ماذا أقول ؟

أصبحت بلا سند يا حسن ·· أبناء قبيلتك لا يملكون شيئا ·· حتى لو أرادوا انقاذك فهم لا يملكون ·· لن تخرج من استنجادك بهم بغير اراقة ماء الوجه ··

والكبراء ؟ ·· والأعيان ؟ ·· والعمد ؟ ·· ومشايخ القبائل ؟ ·· هل تذهب اليهم ؟ ·· لا تنكر انك تكرههم فى أعماقك ·· طالما قالوا فى مجالسهم عن قبيلتك انها أفقر القبائل ·· طالما قالوا انك الوحيد الذى يملك فيها أرضا ·· وأين هى أرضك ؟ ·· ضاعت ·· خمسة أفدنة رهنتها بسبب معركة ·· لا ·· بسبب كلمة ·· كلمة والله يا ريس قالها شيخ قبيلة « الشوامخ » ·· أنتم قبيلة لا أرض لها ولا نخل ولا أصل ! ·

ـ يا ولد ·· هاتوا النبابيت والحراب !

ـ لماذا ؟

ـ سنؤدب « الشوامخ » ! أما كان الأولى أن ترد عليه بكلمة مثلها بدل أن تتكلم النبابيت وتفتح السجون أبوابها ؟

ـ محمود أبو عبد المجيد حكموا عليه بسنة ٠٠ وعبد العاطى الأحمر شهرين مع الشغل ٠٠ وعلى الهلالى ثلاثة شهور ٠

ـ وماله ؟! ٠٠ دخلوا رجال وطلعوا رجال !

ـ وأولادهم يا نوارة القبيلة ؟

ـ أنا سداد ! ٠٠ هـات من الصومعة الغربية ثلاثة أرادب غلة ؟

ـ محمود الدراوى يسأل عليك ٠

ـ أنا عارف !

تبيع فدان أرض يا حسن ٠٠ تدفع للدراوى ثمن العجلة ، وتستعيد جـزءا من أرضك المرهونة ٠٠ لكن ٠٠ كيف ؟ ٠٠ هل تستطيع أن ترفع رأسك بين القبائل اذا بعت أرضا ؟

ما العمل اذن ؟

ـ يا ليت والله يا شيخ حسن ٠٠

ـ لكن يا عمدة سأرد لك المبلغ بعدشهرين !

ـ أنت تعرف اننى لا أبخل عليك لو كان معى !

عجلة ؟ ٠٠ عجلة تحيرك هكذا يا حسن ٠٠ كنت تدبح مثلها

كل سنة فى ليلة نصف شعبان « كرامة وسلامة » للمســاكين من أهل الله ؟

عجلة ؟ ٠٠ عجلة يا حسن ؟٠

ـ أبى ٠٠ هذه السنة كل قبيلة ستدبح عجلة فى الليلة الكبيرة ٠

ـ لماذا ؟ ٠٠ الم تكن العادة ذبح خروف ؟

ـ أجل ٠٠ ولكن هذه السنة الحال تغير ٠٠ كل قبيلة جمعت فيما بينها مبلغا لتذبح عجلة !

ـ وهل قلت لأفراد قبيلتنا ليسهم كل منهم فى ثمنها ؟

ـ درت عليهم واحد واحد ٠٠ كلهم اعتذروا بضيق ذات اليد ٠

ـ كلهم ؟

ـ كلهم ٠

ـ اسمع ٠٠ اذبح العجلة الحمراء ٠٠ وأعلن للناس أن قبيلتنا كلها اسهمت فيها ٠٠ لاتظهر للناس ان قبيلتنا فقيرة ؟

ـ محمود الدراوى سأل عليك

ـ عارف !

أبيع النخل ؟ ٠٠ اجل لا بد من بيع ولو جزء منه

ـ زرعت النخل وتعبت فيه وسترثه من بعدى ياحسن ٠٠

ـ البلح « السكوتى » لرزقك ورزق أولادك ٠٠ و « البرتمودا » تبيع بلحه توزع ثمنه على فقراء قبيلتنا ٠

بعد عمر طويل يا أبي

مستحيل ٠٠ ان أبى يتململ فى قبره اذا عرف اننى بعت النخل ٠٠ ما العمل اذن ياخالق الزرع والبحر والجبل ؟

ـ محمود الدراوى يقول لك انتظره فى البيت بعد صلاة العشاء ٠

ـ عارف !

ـ لاتحزن ٠٠ انت اخطأت حقا حينما جاريت من هم اقوى منك لكنك تنجد الملهوف ٠٠ وتعين على نوائب الدهر ٠٠ ولن يخذلك الله ٠

ـ اسكتى ياأمرأة ٠٠ هذا كلام فارغ !

ـ أبى رحمه الله كان يقول من يمسح على جراح الآخـرين يمسح الله على جراحه ٠

ـ لأنه كان رجلا مغفلا ٠٠ لم يفهم الدنيا !

ـ لاتيأس ٠٠٠ صدقنى ٠٠ ألم تسمع بالعصفور الذى غنى فوق الأرض المجدبة ؟

ـ غنى ؟ !

ـ نعم ٠٠ قالوا له ماالذى يعجبك حتى تغنى ؟ ٠٠ قال لانها وصلت الى اقصى جدبها ٠٠ ومعنى هذا لم يبق امامهـــا الا ان تخضر ٠

الغـــابة

(١)

هدأت زوبعة الغبار فظهر « حمدان الجاسر » ، يعض طرف شاربه المعقوف بزاوية فمه ، وبندقيته فى يده ٠٠ عباءته على كتفه وعشرة من رجاله يتقاطرون خلفه ٠

حين صعدوا الجسر بين الحقول ، رأيت « عبد الفتاح الغازى » يسير بينهم مطأطىء الرأس ، جلبابه الأزرق ممزق عنـد الكتف وعمامته هبطت الى عنقه بجواره يسير أحد الخفراء ٠

قبالة برج الحمام ، فى مقدمـة بيت الجاسر ، هبطـوا ٠٠ بعضهم وقف خارج البيت ودخل بعضهم ٠ نبحت الكلاب فنهروها ٠ خرج أحدهم وفى يده حبل طويل ٠٠ تعاون مع آخرين وأوثقوا عبد الفتاح ٠٠ فرشوا تحت قدميه مستطيلا من التبن ، وأرقدوه على بطنه ٠ ورفعوا جلبابه ٠٠

خرج الجاسر وفي يده سوط يدهنه بالزيت ٠٠ شمر عن أكمامه

ورفعه الى أعلى ٠٠ عند كل ضربة يزوم ويردد « يا قمر » ٠

انطلقت صرخات حيوانية من عبد الفتاح ، طار لها الحمـام دفعة واحدة ٠

اقتربت ٠٠

سألت « زيدان » ابن حمدان الجاسر :

ـ ما الحكاية ؟

تناول بندقية أبيه ، ووضع اصبعه على الزناد :

ـ ابتعد يا كمال ٠

ابتعدت ٠

(٢)

كنت فى منتصف الزجاجة الثانية ، عندما سمعت الطرق على البـاب ٠٠ أخفيت الزجاجة تحت السرير وقمت ٠ فتحت لأجـد « كمال » يلهث ٠ دعوته للدخول فرفض ٠ طلب مسـاعدتى فى تخليص عبد الفتاح الغازى من « الجاسر » ورجاله ٠ لم أع كلامه فى البداية لاستبداد النشوة بى ٠٠ حين أفقت واجهته بحجتى ٠ أبى يمنعنى من مخالطة الجاسر وقبيلته ٠ بيننا ثأر قديم يستوجب الحذر ٠ قال ، قبيلتك قوية ، وفى استطاعتك التدخـل ٠ قلت ، سيتحرشون بى ويحدث التصادم ٠

وقف يفكر برهة ٠ أسند يده على الحائط وتساءل عما يجب عمله ٠ قلت ، لا شىء ٠٠ اجلس لقضاء السهرة معى ، رفض ٠ بعد ذهابه عدت لعناق الزجاجة من جديد ٠٠ لا شىء أجمل من شرب النبيذ غير معاكسة البنات فى زحمة مولد الشيخ عبد الباقى الذى سيبدأ غدا ٠

شاهدنا مباراة الكرة فى تليفزيون الأستاذ الناظر ، وغرقنا فى بحر المناقشة ·· كنا ــ الأستاذ الناظر وأنا ــ فى نشوة لانتصار فريقنا ، بقية الزملاء كانوا كاليتامى الجدد لاندحار فريقهم · سمعنا جلبة فأنصتنا · جاءنا صوت يصرخ فى غضب : « يا فهيم » · نظر الزملاء الى بعضهم فى وجوم ·

قال مدرس العربى ــ وهو من أهل القرية ــ هــذا صــوت « حمدان الجاسر » ·

قذفتنا البوابة أمامها فى لحظة · كنت أسمع عن الجاسر وهذه أول مرة أراه فيها ·· نحاسى الوجه ، مفرط البدانة ·· طرف عباءته يصل الى الأرض ، تبرز منه ماسورة بندقية ·· رجاله يحاصرون « عشش الغوازى » ويحرقونها بنظراتهم ، تقدم منه الأستاذ الناظر وسأله فلم يعبأ به · واصل صراخه · فخرج اليه كبير الغوازى « فهيم » وعينه الواحدة ترمش · دار حول نفسه ، فى ذهول ، قبل أن يرفع يده الى محاذاة رأسه ويتكلف الابتسام ·

ــ عبد الفتاح هنا ؟

تلعثم « فهيم » من حدة السؤال وقال : « لا » · رفع الجاسر يده وأنزلها ·· قبل أن تهبط الى جانبه ، كان رجاله يقتحمــون العشش · بعد لحظات خرج اثنان يمسكان بالشاب الطويل الذى يغنى فى الأفراح · كان يغالب النوم وعمامته تدور حول عنقه · رفع الجاسر يده وأهوى بها على وجه كبير الغوازى ·· بكى الرجل وحلف انه لم يكن يعرف بوجوده · وحضر شيخ البلد · كان فى بيته فسمع الضجة وخرج · قدم اليه « الجاسر » بلاغا ، فقرأه بامعان ·· كتب على ظهره « يحول لحضرة العمدة » وناوله لابن عمه « سلطان » ·

ركب سلطان جواده ، وسلم الشاب الذى يغنى فى الأفراح لأحد الخفراء . اتجه موكبهم الى الشرق تصحبه موجة غبار .

حين سأل الأستاذ الناظر ، شيخ البلد ، عن السبب ، قال ان الشاب الذى يغنى فى الأفراح ، التقى ببنت الجاسر الكبرى ، وقال لها : « يا قمر » . قهقه بعض الزملاء ، فالتفت الناظر مغضبا .

عند عودتنا الى البيت ، سألنى مدرس العربى : أتحدث عندكم أشياء مثل هذه فى وجه بحرى ؟

قبل أن أرد ، سألنى الأستاذ الناظر عن رأيى فى « الحكم » . قلت : « كان متحيزا طبعا . لكن ماذا يجدى تحيزه ، وقد أرغمنا فريقه على أن يجعل عاصمته مدينة مفتوحة ؟ » .

(٤)

سمعت أدى تقهقه فدخلت عليها حجرة الفرن ، وجدتها تخرج سمكة صغيرة من بطن سمكة كبيرة وتضحك .. « حوت يأكل حوت يا زينب » .

عبد الفتاح يحب السمك ، لكن يبدو أنه لم يأت . غيرت ثوبى . أبيض عليه ورود حمراء ، أعرف أنه يعجبه ، ولا أدرى ما الذى أخره . نبح كلبنا (مسعود) فهرولت الى الباب .. وجدت ابن حمدان الجاسر الأصغر مارا بفرسة أبيه البيضاءحين وقع بصره على ابتسم لى ، فتجاهلته .. أخرج مسدسا وأطلقه على شجرة الاثل فطارت عصافيرها . يظن انه يبهرنى . أبوك كان يرتعش هنا تحت أقدام عبد الفتاح بالأمس . لو تجرأت أنت لارتعشت مثله .

اتجه بفرسه الى نجع العمدة . يركض ويتلفت وراءه . أدخلت « مسعود » كى لا ينبح عبد الفتاح حين مجيئه ، لكنه لم يأت .

أطلقت أمى البخور ، فعبق جو البيت بالفرحة . غابت الشمس ، وأذنت العشاء ، وارتفعت النجمات الثلاث ، وانحدرن الى الشرق ، ومع ذلك لم يأت .

قلبى منقبض .

(٥)

كنت مشغولا بسقاية قمحى .. الميـــاه تتدفق فى الجداول وأحولها الى الحياض ، حين صكت أذنى صرخة آتية من جهــة الشرق . بلا شعور منى اخترقت غابة نخــل « الهلايل » . كان الظلام قد حل ، وسد الفجوات بين أشجار النخيل . اضطررت الى مد يدى الى الأمام متحسسا . فى منتصف الغابة ، لاحت لى أشباح تقترب . بينها شبح يترنح مستندا على شخصين .

لما اعتادت عينى الظلام ، عرفت أنه عبد الفتاح الغازى . كان يجر قدميه ويبكى .. فى المقدمة يسير حمـدان الجاسر وابنــه « زيدان » . تعاون أربعة منهم ورفعوا الفتى الى أعلى . أسندوه الى نخلة ، وداروا عليه وعليها بالحبال . لم أفهم شيئا .. اقتربت وألقيت السلام .. زيدان بن الجاسر تقدم منى صارخا :

ـ انت رجل كبير السن ، فاحترم نفسك .

قبل أن ينهى جملته ، هبت ريح شديدة تمايل لها النخل وثار الغبار . اضطررنا للجلوس على الأرض ودفن رؤوسنا بين ركبنا . فى هذه اللحظة ، اخترق الغابة « نجدى الرمالى » . عندما أبصر أشباحا ، تملكه الخوف .. هو يخاف العفاريت ويكثر من الحديث عنها .. قرأ الصمدية بصوت عال فعرفوا صوته . نادوا عليه وهم يضحكون .. رفع رأسه وراح يحدق فى عبد الفتاح . لم يطمئن

ويجلس الا بعد وقت · سمعنا وقع حوافر خيل ، فهبوا جميعا كأنهم يتوقعون حضور أشخاص · تبين أنهما « سلطان » نائب شيخ البلد ، وابن الجاسر الصغير ·

ترجل سلطان عن جواده ، ومضوا يرحبون به · أحضروا له « برشا » فرشوا فوقها سجادة ، فتربع عليها · جاءت القهـــوة باللبن ، وداروا على الجميع بأرغفة القمح ، يأكلون ويشربون وابن الناس معلق فى النخلة · لو تفوهت بكلمة لربطونى معه · حمدان الجاسر وقبيلته ، نصبوا أنفسهم آلهة فى البلد ·· نسوا أيام دخلوا بلدنا حفاة وتألهوا · لو كانت لعبد الفتاح قبيلة تقول وتطول ، لما تجرأ عليه أحد ·

ـ سلامات يا شيخ العرب حمدان ؟

ـ حفظك الله يا سلطان بك ·

فكرت فى المسألة ؟

قلت لك دفعوا لى سبعين ·

أنا لا أدفع أكثر من خمسين ·

الله يبارك لك ·

اقترب منى « زيدان » ووضع يده على كتفى :

ـ بعد اذنك ·

نفضت ثوبى وقمت ·· وجدت الميـــاه ، كسرت الحوض ، وأغرقت الطريق ، والساحة الكبيرة ، ودارت حول المسجد ·

ليلتى عصيبة ·

(٩)

ـ مهمتى هى ضبط الجريمة بعد وقوعها ·

ـ لكن الرجل مسكين · ولا قبيلة له ، وقد يموت بين أيديهم ·

ـ كمال ·· انت عاقل رغم صغر سنك · قلت لك مهمتى هى « بعد » وليست « قبل » ·

(٧)

كان درس أستاذنا الشيخ عبد الحميد الراوى ممتعا ·· أفاض بلسانه الذرب فلم يبق قولا لقائل ·· فند كل حجج الشيخ العتمورى الشافعى قال ، أبلغوه ، علمت شيئا وغابت عنك أشياء · خرجت بعد الصلاة لأجد المياه تغرق الطريق والساحة الكبيرة أمام الجامع · مزارعو المنطقة عرف عنهم الاهمال ، وهذه هى المرة المائة التى يحيلون فيها الساحة الى بحر لجى · اضطررت للدوران فى الطريق المؤدية الى الجبل لأصل الى اليابسة · عند حافة الجبل سمعت همهمات · رفعت عينى لأرى أشباحا تهبط ·· عرفت فيهم قبيلة « الكواسر » على الفور · اختبأت وراء صخرة وكتمت أنفاسى · اتجهوا الى طريق المزارع · كانوا بين الثلاثين والأربعين · يحملون النبابيت وثلاثة منهم يحملون البنادق · يسيرون فى صمت ، فتوقعت شرا ·

الكواسر لا يهبطون من بيوتهم فوق قمة الجبل لخير ·· لسرقة المواشى أو للاغارة على أحد النجوع ·· المرة الوحيدة التى هبطوا فيها دون أذى ، كانت يوم عرس العمدة ·· ظلوا يأكلون الليل بطوله ، وفى النهاية انصرفوا دون أن يدفعوا له مليما واحدا من النقوط · لاحظت أن شابا عارى الرأس يسير معهم · لم أعرفه

لكثافة الظلام · يرفع جلبابه ويظهر تحته السروال الذى يرتديه تلاميذ المدارس ويسمونه « البيجاما » ·· لم أخرج من مكمنى الا بعد ابتعادهم بمسافة طويلة ·· اللهم لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه ·

(٨)

وتدفقت القبائل الهمجية من الشمال فى دوى عظيم ، رجالها يركبون الخيول الهائلة الحجم ، تفوح منهم روائح نتنة · شعورهم الشقراء الطويلة تتهدل فوق دروعهم · خوذاتهم تلمع تحت أشعة الشمس ·

فى المقدمة سارت قبائل الجرمان والنورمان والقوط ·· أغاروا على الامبراطورية الرومانية فأتلفـوا مزارعها وأذلوا قراها ·· حطموا أبواب المدن وأعملوا السيوف فى أهلها وساووا بيوتهـا بالأرض · وعجز عرش روما عن فعل شىء · فالانحلال كان قد دب فى الامبراطورية وانهمك أهلها فى الملذات وجمع الأموال ·

رفعت عينى عن الكتاب على صوت نسائى ينادينى ·· قلبت الكتاب وخرجت · وجدت امرأة تلتف بملاءة صوفية سوداء ، بدا من هيئتها أنها من « الغوازى » · تقف أمام الباب الخلفى فيما يلى الجنينة · سألتنى وهى تصافحنى :

ـ حضرة العمدة هنا ؟

ـ لا ··

ـ أين ذهب ؟

ـ لست أدرى ·· كان هنا منذ قليل ·

اختنقت بالبكاء · سألتها عما يبكيها ، قالت :

ـ منذ أيام كانت بنتى تقف أمام باب بيتنا ، وتصادف مرور حمدان الجاسر ، وحين عرف أنها بمفردها ، دخل البيت فتراجعت البنت صارخة · فى نفس اللحظة وصل خطيبها عبد الفتاح استطاع أن يلوى ذراعه ويوقعه على الأرض · ثم تركه لما رآه يستعطفه ·

وزاد بكاؤها وهى تكمل :

ـ اليوم هجم مع رجاله ، وعلقوه فى نخلة ، وأشاع فى الناس انه عاكس ابنته الكبرى فى الطريق ، قال لها « يا قمر » ·

ـ وماذا تريديننى أن أفعل ؟

ـ أريد والدك الآن ، الآن اعمل معروف ·

قلت لك أبى خرج ولا أعرف أين ذهب ·· اذهبى الى شيخ البلد ·

ـ ذهبت وقال عنده ضيوف ·

ـ بصراحة أنا مشغول ·· أذاكر حتى فى الأجازة وطبيعى أنا لا أفهم فى مثل هذه الأمور ·

ضربت كفا بكف وذهبت ، وراحت قبائل الشمال تكتسح كل شىء فى طريقها ·· نهبت قوافل التجارة ، وأغلقت الطرق ، وسبت النساء ، حتى أن مقاطعات بأكملها خلت من سكانها ·

(٩)

كثيرا ما تظهر لى العفاريت وتكلمنى ·· لكن هذه المرة زاد الأمر عن حده ·· فى غابة نخل « الهلايل » ، رأيت أشياء مكومة على الأرض ، وشيئا معلقا على نخلة · معلوماتى عن هذه الغابة ،

أنها مسكونة بالعفاريت ، كأى جزء آخر من القرية · كانت الريح تعصف والقمر غائبا ، فتلوت بصوت عال : « قل هو الله أحد ، الله الصمد » ·

سمعت صوتا ينادينى · صرخت « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـد » · جلجلت ضـحكات كثيرة فخجلت · تبين لىَ أن الجالسين هم حمدان الجاسر ورجاله ، لم يطمئن قلبى · من الجائز أن يكون هذا حمدان الجاسر حقـا ، وهؤلاء رجاله فعـلا ، لكن ما الشىء المعلق على النخلة ؟

توهمت أن ما يحدث أمامى ، حقيقة ، لما وصل نائب شيخ البلد « سلطان » ، وساوم الجاسر على المهر الذى ولدته فرسه ، قبل أن يتم البيع والشراء حدث ما كنت أتوقعه ··

ضربة

النبابيت غنت فوقنا فجاوبها الصراخ ·· جاءتنى ضربت نبوت فغبت عن الوجود · فتحت عينى بعد فترة لا أدريها ، فلم أجد أحدا ·· رفعت عينى الى النخلة ، فلم أجد الشىء المعلق · فهمت كل شىء · تذكرت حكايات أبى وأمى وجدتى وفهمت كل شىء ·· العفاريت تعقد المجالس وتقيم الأفراح · وفجأة يتبخر كل شىء · حملت نفسى وجريت بأقصى سرعتى · العفاريت صادفتنى كثيرا من قبل ، لكن هذه المرة لم يحدث لها مثيل ، فالذين رأيتهم كانوا تماما مثل حمدان الجاسر وابنه ونائب شيخ البلد سلطان · دستور يا أسيادى ·

(١٠)

قالت سأذهب الليلة مع خالاتى الى عرس القرامطة · عرفت ما ترمى اليه · قلت سأنتظرك على حافة النهر ، تحت شجر محمود

الزناتى · قالت لن أحضر · قلت فى هذه الحالة ، سأسلم نفسى للضبع كى يأكلنى لكنى سأطلب منه أن يبقى على عينى لأراك بهما · ضحكت ··

فى الموعد المحدد جاءت · لبدنا بين شجرتين · طوقتها بذراعى وقبلتها فى عنقها وشفتيها · بنت الشياطين ، جسدها مثل عجينة القمح المصنوعة خصيصا لكعك العيد ·· التصق صدرها بصدرى ، فقلت : كم هى جميلة ، الدنيا ، وفى حلاوة البلح العجوة المقطوف لتوه ؟ ·

سمعنا دبدبة أقدام فتيبسنا · ارتعشت بين يدى وقالت انتهى عمرى · رأينا رجلا يجرى صوب النيل ، وأربعة رجال يطاردونه ·· صعد الصخرة المطلة على النهر ، ووقف يتلفت خلفه · صعدوا وراءه وهم يزمجرون · انحنى الى الأمام وقفز فى الهواء · سمعنا صوت ارتطامه بالماء · هبط الرجال من فوق الصخرة واختفوا · لم نفهم شيئا ، لكنا كنا نرتعش · ذهبت هى وبقيت وحدى ·

أكنت أحلم ؟

(١١)

طرقات على الباب كطبول الحرب ·· نصف القرية تقتحم حجرة نومى ·· أصواتهم تلوح كأيديهم ·· أكثر من ساعة مرت دون أن أعى ما يقال ·· من غير المعقول أن يذكر اسم قبيلة « الكواسر » ويتوقع الانسان خيرا · حينما أفقت لنفسى تملكتنى الحيرة ·· يمكن أن يعتدى الكواسر على حمدان الجاسر ويضربوه ، لكن كيف اختطفوا « سلطان » وقد ذهب أمامى بالبلاغ الى العمدة ؟!

ينفخ

لبست ثيابى وتبعنى ثلاثة من أولاد عمى · وجدنا الجاسر يرقد فى الفراش · وجهه ملىء بالكدمات وذراعه مكسورة ·· كان ينتفخ من الغيظ فعرفت أنهم اختطفوا عمامته أيضا وعمائم رجاله وانتزعوا البندقية من ابنه · قال ما أن تطيب جروحى حتى أقتحم عليهـم الجبل · كذاب ! ·· لا هو ، ولا أبوه ، ولا جده ، يستطيع الاقتراب من الجبل ·

اتفقا

ومن رجاله عرفت كل التفاصيل ·· سلطان كان ضالعا مع الجاسر فى حجب عبد الفتاح عن العمدة · اتفقنا أن يذهب سلطان بالبلاغ ، ثم يبعث بابنه وراءه ليدركه قبل أن يصل الى العمدة ، كأنه تنازل عن البلاغ · وعاد سلطان ليجد عبد الفتاح فى « ضيافة » الجاسر ! ·· سلطان بدأ يلعب وراء ظهرى · لكن ما يحيرنى الآن ، هو كيف أستعيده ؟ ·· هل أذهب اليهم بمفردى لأقنعهم بتركه لى ؟

ـ من هناك ؟ قف واكشف عن شخصك ·

ـ أنا شيخ البلد ·

ـ ضع يديك فوق رأسك واصعد ·

ـ أريد « سلطان » وعبد الفتاح والبندقية والعمائم ·

ـ عبد الفتاح أطلقناه ·· وسلطان سنسجنه ·· أما العمائم والبندقية ، فليأت الجاسر لأخذها لو استطاع ! ·

ـ اسمعوا ·· نحن نتغاضى عن أشياء كثيرة ·· لكن « سلطان » من رجال الحكومة ·

ـ أنت تهددنا اذن ·· يا منازع ·· يا فرعون ·· يا صخر ! ·· قيدوا الشيخ ·· لا ، لا ·· لا ·· فليذهب سلطان الى ألف داهية ·· لن أتحرك من مكانى ! ·

* * *

ـ تقول رأيته بعينيك يا بنى ؟

ـ نعم يا حضرة الشيخ ·· أنا كنت فى طريقى الى عرس القرامطة ·· وتصادف أننى قررت النزول الى النيل لأشم الهواء ! ·· وعند شجرة الزناتى ، رأيت أربعة رجال يطاردونه وهو يجرى أمامهم حتى صعد الصخرة وألقى بنفسه فى النيل ·· وبعد أن ذهبوا ، نزلت ، فوجدته لابد تحت الصخرة ، نصفه فى الماء ونصفه على البر وفى غاية الاعياء ·· حاولت اخراجه فلم أستطع لثقل جسده · وقال لى اذهب الى شيخ البلد ليحضر بالناس وينقذونى ·

ـ يا عرب ·· هاتوا الفوانيس والحقونى على النيل ·

انتظـــار ...

ومضت آلات التصوير على الملك الجرانيتى النحيل بأسنانه البارزة قليلا ·

بين الأعمدة الفرعونية المتهدمة ، مرق صبى نحيل الوجه ، له أسنان بارزة قليلا ، وعمامة ضخمة ذات طيات ناء بها عنقه ·

قطع طريق المزارع ، بحماره الأبيض النشيط ، وتوقف أمام بيت قمىء · ضرب الباب قليلا بلهجة خطابية :

ـ البشارة يا أهل الله ·

سور متهدم يدور حول ثلاث شجرات ليمون وبضع نخلات · يفصل البيت عن بقية النجع ·

فتح الباب عن رجل قصير ، عريض الصدر :

ـ أى بشارة ؟

ـ الحبيب على قيد الحياة ·

ـ الغالى ؟

ـ نعم ٠

ضحك الرجل فى هستيرية ٠٠ ضرب قميصه الأبيض فوق فخذيه بقبضتيه ٠٠ سقطت طاقيته ذات القمة الشبيهة بالمئذنة ٠

هرول الى الداخل وعاد يلوح بورقة من فئة العشرة قروش ٠

ـ بشارتك يا بن الأخ ٠

دس الصبى النقود فى جيب الصديرى ، وتحرك بحماره الى البيت المجاور :

ـ البشارة يا أهل الله ٠

فوق العتبة ظهرت عينان ضاحكتان ، تحتهما تجاعيد دقيقة ، وأنف نحاسى وسيم وشارب أبيض متهدل :

ـ خير ؟

ـ الحبيب على قيد الحياة يا عم « هوارى » ٠

ـ من قال لك ؟

أخرج الصبى ورقة صغيرة ومدها اليه :

ـ تلغراف وصل من مصر ٠٠ أنا حاضر بقطار الصباح ٠

فرد الرجل البرقية أمامه وحملق فيها ٠٠ شفتاه المنفرجتان قليلا ، دلتا على عجزه عن فك طلاسـم خطوطها ٠٠ رفع رأسـه بعمامته الكبيرة ، وضحكت عيناه فى وجه الصبى :

ـ انزل يا حامد ٠

ـ كتر الله خيرك يا عم ٠٠ هات البشارة ٠

ـ انزل يا حامد ٠

ـ ناوى أبشر النجع كله ٠٠ هات البشارة ٠

ـ انزل يا حامد ٠

ـ يلعن أبو العيشة يا عم ٠٠ هات التلغراف ٠

توارى « الهوارى » وراء الباب ، وعاد بدف كبير على اطاره دوائر حمراء صغيرة من الحناء ٠ جلس على سرير من الحبال ، أمام الباب ووضع ساقا على ساق ٠

قفز حامد من فوق حماره متكورا ٠٠ فرد عوده ببطء شديد وعيناه تحملقان فى الرجل :

ـ ترجع للغناء يا عم ؟

نقرت الأصابع الطويلة على الدف نقرات بطيئة منتظمة ، بينما حامد يجلس على السرير فى حذر ويده قابضة على سير اللجام ٠

بنغمـة وشت بوجيعة الأعمـاق ، وبصوت سـاحر ، أطلق الهوارى « يا ليل » طويلة ، مثيرة للشجن ٠٠ تمنى حامد ألا تنتهى ٠٠ ومد الحمار أذنيه كالسهمين ٠

فتح باب قريب ، خرجت منه امرأة مسنة ، تجاعيد وجههـا تتأرجح بين الستين والتسعين ٠٠ على رأسها خمار أسود ينسدل طرفه على ثوب أسود فضفاض ، التفت الحمار ناحيتها فبدا عنقه على شكل نصف دائرة ٠

« زمان يا درق ما مسكناك

« ولا الشمس وقفت قبالك

« ولا على الفرسان قلبناك

« لما العتّ قطّع حبالك »

وقفت المرأة قبالتهما صامتة ، حتى أكمل « قطع حبالك » التى تغيرت فيها طبقة صوته ، فخرجت بشحنة أسف تتحسر على ليال كثيرة ضائعة ٠

همس حامد للمرأة مع نقرات الدف التى تحولت الى نقرات راقصة :

ـ الغالى ٠٠ حى ٠

انطلقت منها زغرودة مضطربة امتزج فيها الفزع بالفرحة بالدهشة فكانت أقرب الى الصراخ ٠٠ الزغرودة الثانية راقت ، وأوحت بمصالحة الأيام ٠

مع الزغرودة الثالثة ، كانت أبواب الدروب تقذف بمن فيها الى الخارج ٠٠ فى المقدمة رجل بنى طويل لبس جلبابه ٠٠ على بعد خطوة ، فتاة شديدة السواد ، لها بشرة ناعمة الملامح فاتنة تليق بملكة جمال ٠٠ كلب أغبر يتقافز حول طفل نصف عار ٠٠ خلفهم سيل من العمائم والطواقى والشيلان ، ضاق بها الدرب فضاعت ملامحها ٠٠ ندم حامد على نزوله وضياع « البشارة » من كل هؤلاء ٠٠ لكن احساسا بالراحة شمله لعودة الهوارى للغناء ٠ وحاول أن يلزم الجموع بالهدوء ، باشارات من يده ، الا أن امرأة بدينة ، صارمة الملامح ، أفسدت محاولاته بزغرودة رائعة لا يصدق أحد صدورها عن هذه النظرات القاسية ٠٠ انطلقت بعدها زغاريد كثيرة ، بدت متفرقة ، لكنها انتظمت فى النهاية ٠

دهش حامد للزغاريد التى انطلقت قبل أن تعرف الجموع شيئا عن البرقية ٠٠ خمن انها ربطت بين عودة الهوارى للغناء ومقدم « الغالى » ٠

جاء رجل يحمل سيفا مستقيما علاه الصدأ ، ومد به ذراعه الى الأمام ودفع بساقه اليسرى الى الخلف ٠٠ مضى يحدق أمامه بنظرات حادة كأنه يتحدى مبارزا قباله ٠٠ دار الرجال حوله يلوحون له بقبضاتهم ٠٠ وثب الى الأمام وثبة عالية اتجهت معها الأبصار الى أعلى ٠٠ توقف ودفع التراب بكعبه الى الخلف وعاود الوثوب ٠٠ وقف قباله رجل فى الخمسين له قوام شاب فى العشرين وأطلق فى وجهه صيحة عالية تعبر عن الابتهاج بالنصر ٠٠ تناول الآخر السيف ونزل الحلبة تحت أمواج الزغاريد ٠

ـ الدرب ضاق بكم ٠٠ اطلعوا شرق النجع ٠

وتحرك مستطيل من الجلاليب ، يمشى على مهـل ، يتوالى الراقصون فى وسطه ، وتتوالى صيحات النصر ٠

ثار الغبار شرقى النجع ، تكاثفت الجموع ، امتلأت الطرقات بالقادمين ، وتصايح الصغار ٠٠ قأقأ الدجاج ٠

حين توارت الشمس خلف الجبل الغربى ، وظهر القمر ، جاءهم صوت الهوارى حبيبا ناعما فى نهاية الدرب ٠٠ اندفعت جموعهم نحوه فى صف لولبى طويل ، بدأ تحت ضوء القمر كثعبان عظيم مبرقش يتراقص أمام مزمار ٠

افترش الرجـــال الأرض فى المقدمة ، وجلس النســـاء فى الأطراف ، وران الصمت ٠

توالت نقرات الدف ، توالت المواويل ، تنوعت ٠٠ صلت على النبى ٠٠ أبو فاطمة ٠٠ حبيب أمته الذى : « قال له الاله : اندفن فوق ٠٠ قال : أمتى فى الأراضى » ، ولج بعدها الشاعر فى سيرة « أبو زيد » الذى غاب عن النجع فى رحلة طويلة ، انقطعت فيهـا أخباره تســامع الأعداء ، توالت غاراتهـم على النجـع ، قتلوا

الرجال ، سبوا النساء ، نهبوا الخيل والأنعام ، جاءت قبيلة الهلايل ، انتشر فيها العرى ٠٠ ظهرت الثقوب أمام حلمات النهود الطازجة ٠

لكن دوام الحال من المحال ، ها قد جاءت البشائر بمقدم « أبو زيد » يسوق أمامه ألف بعير ، تحمل الغلال والطيب ، حوله مئات الفرسان ، آمنوا بفروسيته ووضعوا أنفسهم تحت امرته ، جاء أبو زيد ، ينذر الأعداء ٠٠ يتوعدهم ٠٠ تدق الطبول ٠٠ تصهل الخيل ، زمان يا درق ما سكناك ، يغيرون على الأعداء ، يثأرون منهم ، يتنقلون من نصر الى نصر ، يعودون عند كل أصيل ، تزغرد لهم النساء ، تغنى البنات ، تنطلق الضحكات الناعمة ، ينحرون الذبائح ، يفتتون خبز القمح الرقيق ، القمح وليس الذرة ، يدلقون عليه المرق ، يسقفونه بالثريد ، تفوح الروائح الحلوة ، يمدون الأسمطة ، يدعون اليها كل الناس ، يطعمون الطير الذى فى السما ، يغفرون لأعدائهم ، يردون اليهم أسراهم ، لو لم تعتدوا لما اعتدينا ، لتتوقف الحروب ، ليأكل العت حبال الدرق ، لتستمر الأعراس الى الأبد ، أبو زيد قادم وبشراكم يا هلايل ٠٠

يتوقف « الهوارى » بعد كل مقطع ٠٠ يضع الدف بجواره ويشعل سيجارة ٠٠ عشرات الصوانى تدور بالشاى ٠٠ بيوت كثيرة أخرجت أسرة الحبال للجالسين ٠٠ كثيرون فتحوا صناديق سجائرهم الرفيعة ، وداروا على من حولهم ٠٠ عشاق الجوزة تحلقوا فى جماعات صغيرة ٠٠ يتبادلون التحية ٠٠ يتضاحكون ٠٠ يستبشرون بعودة الهوارى للغناء ٠٠ غدا سيرون الحبيب ٠٠ وجهه الضاحك ، منظره الجميل ٠٠ غدا يوشوش لهم النخيل ، تغنى السواقى ، تملأ العصافير الدنيا بهجة ٠

زحام شديد فى المحطة الصغيرة لأناس بملابس العيد ، عمائم

كبيرة فوق زعابيط فضفاضة تبدو كرؤوس بيضاء لبجع أسود · فرقة الزمر البلدى ترج المحطة وتبعث النشوة · حلقة كبيرة تفرقع فيها عصى التحطيب · حلقة مجاورة تتعالى فيها صيحات النصر · الشمس أزاحت الظلمة ووزعت بركاتها على الكون ·

مساحة رملية بيضاء ظهرت على الشاطىء الآخر ·· ملأتها خطوط طويلة سوداء متحركة تهبط فى اتجاه النيل ·· نساء القرية يحملن الدفوف يغنين للحبيب ·· بدأ منظرهن كطوابير النمل ·

عند خط الأفق ظهرت نقطة سوداء ·· زوبعة صغيرة تدور حول نفسها ·· اقتربت بسرعة وتشكلت فى هيئة رأس قطار ·· ارتفع صوت الزمر ليحافظ على مكانته ودوت طبوله فى عنف · وقف الكثيرون على أطراف أصابعهم ·

دخل القطار المحطة ·· عظيم المهابة جليلا ·· أعلى من أعلى البيوت ·· لن يذءو من بناء من قطع ذراعه ·· عرباته تتوالى راكضة ·· نوافذه تجرى متتابعة ·· تطل منها وجوه حمراء فى أعناقها آلات تصوير · بناء

انتصر الزمر فى النهاية وتوقف القطار ·· نزل منه بضعة أشخاص ولم يظهر الحبيب ·· فغرت الأفواه وكف الزمر · ساد صمت عميق الا من صوت آلات التصوير · حدقت العمائم فى القطار بتعبيرات بلهاء · صمتت دفوف النساء فجأة فى الشاطىء الآخر ، حين صمت الزمر ·

ـ يا جماعة · تأكدتم أنه قال : حاضر ؟

ـ طول عمره ما أخلف موعد ·

ـ ما الحكاية ؟

ـ التلغراف مع من ؟

ـ صحيح التلغراف مع من ؟

ـ ما هو قطار الصباح ·

انعقدت دوائر متتالية حول حامد ، يفرد بين يديه ورقة صغيرة يحملق ·· أنا حاضر بقطار الصباح ·

ـ ضربوكم مقلب ·· ناس ضحكوا عليكم وأرسلوا التلغراف ·

ـ السكوت من فضلكم ·· السكوت ، وفكروا فى الموضوع ·

وتقدم طالب أبنوسى له سوالف طويلة وشعر كالقنفد :

ـ اقرأوا تاريخ التلغراف ·

انشق له طريق حتى منتصف الحلقة الداخلية :

ـ التلغراف من مصر ·· من يوم الخميس ·

ـ من يومين ؟

ـ يومين ·

ـ المفروض يكون وصل فى قطار الجمعة ·

ـ المفروض ·

ران صمت عميق مفاجىء ·· كأنما اتفقوا من قبل على لحظة حداد ·· وبدأت الجموع تتحرك فى اتجاه النيل ·· عمائم بيضاء كبيرة منكسة ، كفلول جيش مهزوم أرهقه تعب الطريق ·

ـ جنبى يوجعنى ·

ـ عمره ما كذب علينا ·· ما الحكاية ؟

ـ جنبى يوجعنى ٠

ـ اشرب كوب من حلف البر المغلى فى الشاى ٠٠ لكن عمره ما كذب علينا ٠

ـ يا جماعة ٠

قالها الشاب طالب المدارس :

ـ المهم انه موجود ٠

ـ ما قصدك ؟

ـ قصدى ٠٠ شىء ما أخر مجيئه ٠

ـ والحل يا أستاذ ؟

ـ نحضر باكر ٠

ـ وافرض حضرنا ولم يحضر ؟

ـ نحضر بعده ٠

ـ وافرض طلع مقلب ؟

ـ نحضر بعد بعده وما بعده وكل يوم ٠

ـ تعب علينا يا أستاذ ٠

ـ الحبيب يستحق التعب ٠

رحلة
الغرباء
الى مدينة
~~الطفل~~
الظل

دخلت عليه الفتاة وقالت لاهثة :

ـ الحق يا عم سباق الخيل ·· ولدك عابدين يسرق بلح نخلتك الصفراء ·

ـ من قال لك يا بنت ؟

ـ أنا رأيته ·· راكب فوق النخلة ، فى يده منجل ، يقطع السباط ويرميه على الأرض ·

تناول ثوبه الأسود من فوق حبل الغسيل الليفى ووضعه على كتفه ·· انحنى بجذعه وتناول عصاه الصغيرة الملقاة على الأرض وخرج ·· بعد أن غادر العتبة ببضع خطوات عاد الى البيت من جديد ·· رمى العصا الصغيرة على الأرض ودخل حجرته الداخلية ·· تناول نبوته الشوم اللامع الحمرة من أثر الزيت والحناء ، وهرول الى الخارج ·

* * *

مال برأسه الى الوراء وخاطب راكب النخلة :

– انزل من فوق نخلتى يا بن الحرام ٠

صاح ابنــه ، الذى لم يتجــاوز الخامسة عشرة ، من فوق النخلة :

– وهى نخلتك ؟

– نخلة من يا بن سارقة الدجاج ؟

مد الغلام سبابته السمراء النحيلة الى أسفل وقال ببساطة :

– نخلة المرحوم جدى ٠

– جدك ؟

– نعم ٠٠ أنت ورثتها منه ، وأنا ورثتها منك ٠

تفجر الغضب من شفتى عم سباق الخيل :

– تورثنى وأنا حى يا بن الخطاقة ؟ وأنا حى ؟

– أنا قلت لك عن آخر كلام عندى ٠٠ النخلة نخلة جدى وأنا آخذ حقى فى ميراثى ٠

دار عم سباق الخيل حول نفسه ، ورفع رأسه يخاطب سحابة صغيرة مارة لها شكل الجمل :

– وصلت المواضيع لهــذه الدرجة ؟ مالى ينهب أمــام عينى ولا أقدر أحميه ؟

أدار عنقه وصاح فى الغلام :

– انزل حالا أو أطلع وراءك أرميك من فوقها ٠

ـ لو تقدر تطلع ·· اطلع ·

كان الغلام يعرف أن أباه لا يجيد ركوب النخل ·· صعد عم سباق الخيل فوق الترعة وصرخ بأعلى صوته :

ـ يا أهل البلد ·· يا ناس ·· يا سكان الوادى ·· الحقونى ·· اموالى تنهب والشمس طالعة ·

بعد دقائق كانت الترعة قد امتلأت بحاملى الفؤوس والنبابيت والجريد ·

ـ مالك يا عم سباق الخيل ؟

أشار الى النخلة وصرخ :

ـ ابن الحرام ينهب أموالى ويقول انها أمواله ·

ـ هو ابنك وأنت حر فيه ·

ـ مين قال انه ابنى ؟ ·· المرأة التى تسرق أموال زوجها ، لا أمان لها ·· ربما هو ابن رجل آخر ·

قال الغلام يخاطب الناس كأنه يخطب فيهم من عل :

ـ أنا مكتوب فى دفاتر الحكومة انى ابنه ·· وهو مكتوب فيها انه ابن جدى ، ولو حسبتم الموضوع ستجدون النخلة ملكى كما هى ملكه ·· واذا قدر يطلع فوق ، فليطلع ·

قال رجل قصير له كرش كبير بصوت مرتاح :

ـ سباق الخيل وولده ·· مالكم انتم ؟

وانصرف فتبعه الواقفون باستثناء بضعة غلمان ورجل نحيف عمامته كبيرة اقترب من عم سباق الخيل وقال :

سباط البلح ملقى أمامك على الأرض اجمعه واذهب به الى بيتك ويكون ركب النخلة بلا نتيجة ·

– ولو ·· أنا لا يهمنى أن يكون آخذ البلح أو لم يأخذه ·· أنا يهمنى ألا يطلع نخلى بعد اليوم ·· ثم انه سرق من امرأة أبيه بطة فى الشهر الماضى ، وفى حصاد القمح سرق كيلة غلة ، وفى عيد النص كان يسرق ابن النعجة لولا أدركناه فى اللحظة الأخيرة ·· ثم ان ابن الكلب يقول ان هذا من حقه لأنه ميراثه عن جده ·

كاد

رفع الرجل العمامة عن رأسه وقال :

– انزل يا عابدين :

عوج عابدين الطاقية البيضاء ذات النتوء فى منتصفها كأنها قبة صغيرة ، فغطت احدى عينيه وقال :

– أنزل عندما يأتى مزاجى ·

– عيب يا عابدين ·· هذا أبوك وأنا بمنزلة عمك ·

– اسمع يا عم ·· مستعد أنزل لو ضمنت لى خمسين قرشا ·

– انزل وأنا أضمن لك الخمسين قرشا ·· أليس كذلك يا شيخ سباق ؟

تفجر الغضب من بين شفتى سباق الخيل :

– أنا أعطى ابن سـارقة الدجـاج خمسين قرشا ؟ ·· لأى سبب ؟ ·· لأن أمه طلعت عينى وأرتنى النجوم فى عز الظهر الى أن خلصنى ربنا منها بالطلاق ؟ ·· أم لأنه يركب نخلتى ويزعم انه ورثها من جده ؟ ·· أقسم ببحر الله الطاهر لا يأخذ منى ولا مليم أحمر ·

صعد عابدين الى حلق النخلة وهيأ لنفسه مكانا مريحا بين الجريد الناعم ، بعد أن أزال الشوك بالمنجال ، وقال متحديا :

– خليك ٠٠ اقعد انت عندك ، وأنا قاعد هنا ، وسأرى من منا سيتعب ٠

قال كبير العمامة بلهجة عتاب :

– عيب يا عابدين ٠٠ انزل وفض الموضوع ٠

– أنا لا أنزل الا اذا حصلت على الخمسين قرشا ٠٠ ثم انى أستطيع أن أقطع حلق النخلة فلا تطرح بعدها ليوم القيامة ٠

صرخ عم سباق الخيل :

– طلاق ثلاثة لو قطعت حلقها ، أقطع حلقك ٠

– اذا قدرت تقطع حلقى اقطعه ٠٠ أما أنا فانى قاطع حلق النخلة باذن الله ٠

فى هذه اللحظة وصل الشاب الأنيق أبو زيد مشاكل وقال لعم سباق الخيل :

– ولد مثل هذا يتحداك ويهددك بقطع حلق النخلة ؟ ٠٠ انت عارف حكم القانون فى هذا الموضوع ؟

– ما حكمه يا أبو زيد ؟

– حكمه السجن ٠٠ وأنا مستعد أكتب لك بلاغا فى هذا الولد وفى أمه وتسجنهما معا ٠

– هيا ٠٠ أكتب البلاغ يا سيدى خالك ٠

قال الغلام يخاطب أبو زيد مشاكل :

ـ ما الذى حشرك بيننا يا بن التى تسرق البيض من الجيران ؟

ـ لن أرد عليك اكراما لخالى ٠٠

ثم التفت الى عم سباق الخيل قائلا بانفعال :

ـ اقعد تحت النخلة ، احسن يهرب ، حتى أحضر الورق والقلم ، وان شاء الله يكون أدبه على يدى ٠

وكتب أبو زيد مشاكل بلاغا موجها الى السيد العمدة ضد عابدين متهما اياه بسرقة حمار عم سباق الخيل الأسود ، واقترح على الأب أن يأخذ الولد والحمار الى العمدة على أساس أنه ضبط متلبسا بسرقته ٠

وقال الرجل كبير العمامة :

ـ كلام فارغ هذا الذى تفعله يا أبو زيد يا مشاكل ٠٠ ما الذى يدخلك انت بين الولد وأبيه ؟

رد مشاكل منفعلا :

ـ أبوه خالى ٠٠ أمى أنا بنت سلمى ، وسلمى بنت عائشة العايقة ، وعائشة العايقة بنت فراج التميمى ابن خالة مرعى الكبدار ، ومرعى الكبدار خلف أحمد الباجس ، وأحمد الباجس خلف عبد الرحمن الشاطر الذى خلف سباق الخيل ٠٠ يبقى خالى أم لا ؟

قال كبير العمامة كالمعتذر :

ـ أنا أريد فض الموضوع ٠

قال أبو زيد مشاكل فى حزم :

ـ فض الموضوح يحتاج اليها الضعفاء وخالى ليس بالضعيف ٠٠

هو من أوتاد البلد ، وأطيانه زادت على الثلاثين قيراطا ، يجرى فيها الحصان ليلة ونهار دون أن يصل الى آخرها ، غير النخل والجناين والعجول والبقر والحمير ، والموضوع دخل فى الجد وكل واحد يذهب الى حال سبيله ٠

عدل عم سباق الخيل من وضع الثوب فوق كتفه ، وداس عمامته قليلا بكفه ، وتحسس صدره ، وأخرج علبة المدغة ، فتحها ووضع كمية فى فمه ، ثم بصق على الأرض بمزاج معتدل ٠

تساءل كبير العمامة بعتاب :

– يعجبك هذا الكلام يا شيخ سباق ؟

رد عم سباق الخيل فى حسم :

– يعجبنى ٠

ثم أوصى أبو زيد مشاكل بحراسة الغلام ، وذهب الى حقله القريب وجاء بحماره الأسود وربطه تحت النخلة ٠

وقال الرجل كبير العمامة :

– ما قولكم أنا مستعد أعطى عابدين خمسين قرشا وينتهى الموضوع ؟

قال عم سباق الخيل :

– أمه ٠٠ لولا ان أمه وراءه لوافقتك ٠٠ لكنها تظن أنها تغيظنى بهذه الحركات ٠٠ طلاق ثلاثة لازم أسجنه لها لتعرف قدرها ٠٠

انفض الغلمـــان حين حميت الشمس ، وذهب ذو العمامة الكبيرة ، وجلس عم سباق الخيل وأبو زيد مشاكل – الذى لا يحسن هو الآخر صعود النخل – فى انتظار هبوط عابدين ٠

عطش الغلام لكثرة أكله البلح فوق النخلة وقال لأبيه :

ـ مستعد أنزل ٠٠ على شرط ٠

ـ وما شرطك ؟

ـ أن تحلف بأنك لن تضربنى ٠

ـ والله العظيم ، لن أضربك ٠

ـ لا ٠٠ احلف بالطلاق ٠

ـ ابن حرام والله ٠٠ والمرأة ذات العين القوية لا يخشى منها بقدر ما يخشى من ولدها ٠

ـ اذن ، اقعد انت عندك ، وأنا مرتاح هنا ٠

ـ طيب انزل ٠

ـ احلف ٠

ـ طلاق ثلاثة لا أمد يدى عليك بالضرب ٠

الشمس حامية ، وشجر السنط فى الطريق يسقط أوراقه الناعمة التى تتسلل داخل الجلاليب وتقرص من العرق كالنمل ، الغلام فوق الحمار وأبو زيد مشاكل يمسك بالحبل الذى فى رقبة الحمار ، وعم سباق الخيل وراءه ، البلاغ فى جيب الصديرى ، والثوب الأسود فوق كتفه ، والعمامة مالت الى الأمام قليلا تحمى وجهه من حرارة الشمس ، وانتهى المشوار الطويل أخيرا وثمة كلب أغبر راقد تحت شجرة العمدة ، لسانه استطال وتدلى على جانب فكه ، يلهث وينظر اليهم دون أن يفعل شيئا غير أن يسحب لسانه من جانب فكه الأيسر الى الجانب الأيمن ٠

على الجانب الآخر من الشجرة ، كان العمدة يرقد فوق دكة عريضة ، وعلى الأرض بجواره ، يرقد أحد الخفراء فوق برش من سعف النخيل ٠

ـ سلام عليكم يا حضرة العمدة ٠

جلس الخفير متربعا وانهمك فى مسح العرق من وجهه ، بينما فتح العمدة عينيه دون أن يتحرك :

ـ مالكم ؟

ـ الولد عابدين سرق الحمار ونريد أن نحبسه ٠

حول العمـدة وجهـه الى الناحية الأخرى وقال فى ضجر هامس :

ـ أبوكم وأبو من جعلنى عمدة عليكم ٠

ساعد أبو زيد مشاكل الغلام وأنزله من فوق الحمار وأجلسه على احدى الدكك ولا زالت يداه مربوطتين ، وجلس عم سباق الخيل بجواره يمسح عرقه بطرف ثوبه وانهمك أبو زيد مشاكل فى ربط الحمار ٠

ـ العمدة نائم ؟

ـ نائم ٠

ـ متى يصحو ؟

قال العمدة بلهجة غاضبة دون أن يعتدل :

ـ ليتنى ما صحوت ولا عشت ٠٠ ليت أمى لم تلدنى كيلا أكون عمدة عليكم أنتم ٠

رد عم سباق الخيل فى حزم :

ـ نحن أحسن ناس فى كرة الأرض يا حضرة العمدة ، وكلمنا باحترام من فضلك ٠

جلس العمدة منزلا احدى رجليه على الأرض واضعا الأخرى تحته وقال منفعلا :

ـ أى احترام تنتظرونه منى يا غجر ؟ ٠٠ يعنى انتهت همومى كلها ولم يبق غير مشاكلك انت وولدك ؟

ـ أمـه تسلطه كى يسرق أموالى ، واليوم سرق حمـارى وأبو زيد مشاكل شاهد على ذلك ٠

خلع العمدة طاقيته البيضاء وضربها بقوة على كفه الكبير ثم وضعها فوق رأسـه وفرد عمامته الكبيرة وراح يلف طياتها فوق بعضها وقال وهو ينفخ :

ـ أنا محقوق واستاهل كل ما يحدث لى ٠٠ لو اننى منذ البداية رفضت هذه العمودية ، الله يحرق أصحابها ، كنت الآن رائق البال ٠

ابتسم عم سباق الخيل وقال بلهجة من يسترضيه :

ـ واذا لم تكن انت العمدة علينا ، فمن يكون ؟

ـ ولماذا أكون أنا ؟ ٠٠ ألا يوجد مغفل غيرى فى هذا البلد ؟

ـ لكنا أحببناك أنت وانتخبناك ٠٠ والله العظيم أنا كنت يوم الانتخابات ألف وأدور على الناس فى بيوتهم وحقولهم كى ينتخبوك ، وها أنت فزت والحمد لله ٠

ـ يوم أزرق مثل الطين لم تطلع فيه شمس ، هو اليوم الذى عطلت فيه مصالحى ، ورهنت أرضى ، وأصبحت فيه عمدة عليكم أنتم ٠

ـ لا تفترى على نعمة ربنا يا حضرة العمدة ·· فالله سبحانه وتعالى لم يجعلك عمدة علينا الا لأنك أكبرنا عقلا ·· والآن خذ هذا البلاغ وافهم ما فيه وابعث بالولد عابدين الى السجن ·

أمسك العمدة بالبلاغ وقلبه ثم عاد وعدله وقال :

ـ احك لى الموضوع ·

ـ الموضوع مكتوب عندك فى داخل البلاغ ·

ـ أنا أحب أن أسمع الموضوع من فمك أنت ·

ـ الولد عابدين سرق حمارى ، وضبطته متلبسا ·

ـ أين ؟

ـ من تحت النخلة الصفراء التى بجوار الترعة ·

قرب العمدة البلاغ من عينيه وقال :

ـ لكن البلاغ مكتوب فيه انه سرق الحمار من البيت ·

ـ لا ·· من تحت النخلة الصفراء ·

ضرب العمدة البلاغ بيده فى عصبية وقال :

ـ لكن هنا مكتوب فى البيت ومعنى هذا انك تزور فى أوراق الحكومة ·

وقف سباق الخيل ثم عاد وجلس وقال بعصبية :

ـ اسمع ·· انت ليس لك أى كلام عندنا ·· حولنا على مركز الحكومة ونحن نتصرف هناك ·

ـ هات القلم ·

اقترب أبو زيد مشاكل من العمدة ومد اليه قلم كوبية ، أمسك به هذا وبله بلسانه وخط به بضع كلمات أسفل البلاغ ثم مده الى أبو زيد مشاكل قائلا :

ـ حولتكم على المركز ٠٠ غوروا فى ألف داهية ٠

قال سباق الخيل وهو يقف ويطوى البلاغ :

ـ لا داعى للكلام الزيادة ياحضرة العمدة ، وكل نفس متسلطة فى جسدها ٠ متسلطنة

أضاف أبوزيد مشاكل بلهجة متحدية :

ـ أنت عندك خمســة أفدنة وخالى سباق عنده نخل وجنينة وأطيان لا حصر لها ، لو جعلناها على بعضها لزاد ايرادهــا عن ايراد افدنتك الخمسة ، وكلام زيادة لا داعى له ٠

صاح العمدة فى أبو زيد مشاكل :

ـ اخرس يا صايع يا ابن الصايع ٠ ان شاء الله عن قريب أبعث بك مع المجرمين الى جبل الطور ٠

تعاون أبو زيد مشاكل وعم سباق الخيل فى ايقاف الغلام فوق الدكة ، ثم قربا اليه الحمار فركب بسهولة واستأنفوا الرحلة الى المركز ٠

بعد مسيرة أربعة كيلو مترات ٠ عبروا نهر النيل ، وأمام رجل وسيم تبدو عليه النعمة ، وضع عم سباق الخيل البلاغ ٠

ـ لماذا حولكم العمدة الى هنا ؟

ـ أنا قلت له حولنا الى المركز فحولنا ٠

ـ المفروض أن تذهبوا الى النقطة أولا ٠

ـ النقطة ؟ ·· لكن العمدة حولنا الى هنا ·

ـ العمدة جديد ولا يعرف الاجراءات كما يجب ·

ـ والعمل ؟

ـ اذهب الى العمدة من جديد وقل له يحولك الى النقطة ·

ـ لكن ···

ـ سمعت أو لم تسمع ؟

ـ سمعت ·

ـ تفضل ·

خرج على الفور واضعا ثوبه الأسود على كتفه ·· وجد عابدين فوق الحمار وأبو زيد مشاكل بجواره يلهثان تحت شجرة أبت أن يخرج ظلها من جذعها ·

ـ المركز قال التحويل يكون على النقطة ·

قال أبو زيد مشاكل : أنا كنت أريد أن أقول هذا للعمدة ، لكننى ظننت أن النظام تغير ·

ـ ولماذا لم تقل لى ؟

ـ صراحة ، قلت لنفسى ، العمدة أدرى منى بهذه المواضيع ·
لوح عم سباق الخيل وقال متأففا :

ـ وهل هذا عمدة ؟

ـ لم يستقبلنا كما يجب ، مع أننا ساعدناه فى الانتخابات ·

ـ هذه أكبر غلطة وقعنا فيها ·

– كان يجب أن ننتخب عمدة محترما ، لا رجل يشتم الناس كما تفعل النسوان ·

قال عابدين : أنا جعت ·

أشار أبو زيد مشاكل الى مطعم فول واقترح : ناكل هنا ·

حلو وثاق عابدين ودخلوا ثلاثتهم طلبوا فول وطعمية وسلطة خضراء وشربوا كل أكواب الماء قبل وصول الطعام ·

– لكن مشوار النقطة طويل ·

رد أبو زيد مشاكل : فركة كعب ·· وربما وجدنا اتوبيس ذاهبا الى هناك ·

– والحمار ؟

– انت تركب الحمار وتأتى وراءنا ، وأنا وعابدين نسبقك فى الاتوبيس ·

– أنا تعبت ·

– من هذا المشوار البسيط يا عم سباق ؟ ·· أنا أقطعه ثلاث مرات فى اليوم ·

– انت شاب يا أبو زيد ، أما أنا فقد اقتربت من الستين ونسأل الله حسن الختام ·

ضحك أبو زيد مشاكل وقام ليغسل يديه فى الحوض ثم عاد وهو يقول :

– هات ثلاثة جنيهات ·

ـ ثلاثة ؟ ‧‧ لماذا ؟

ـ عندى طلبات محتاج لها ، اشتريها من البندر بالمرة ‧

ـ لكن ثلاثة كتير ‧‧ أنا عملت حسابك فى جنيه واحد ‧

ـ هذا كان زمان ‧‧ الجنيه زمان كان بمقام خمسة ‧‧ المفروض تعطينى خمسة ، لكنى طبعا عارف الظروف وطلبت ثلاثة فقط ‧

كور عم سباق الخيل قبضته لأبو زيد مشاكل ‧‧ فقال هذا : كم ؟

ـ جنيه ونصف ‧

ـ لأ ‧‧ أقل من ثلاثة لأ ‧

ـ خذ الجنيه ونصف ، ولما نرجع البلد ، أعطيك ‧

أخذ أبو زيد مشاكل النقود واستأذن ‧‧ دخل فى شارع ضيق مسقوف وتوقف أمام دكان ‧‧ صافح صاحبه وقال :

ـ أريد جلابية لزوجتى وجلابية لابنتى وعمامة لى وليس معى غير جنيه ونصف ، فما رأيك ؟

ـ أين أنت يا سيد أبو زيد ؟ ‧‧ من زمن لم نرك ‧

ـ مشغول ‧

ـ مشغول فى ماذا ؟

ـ أبى مات وانشغلت فى المصالح ‧

ـ عليه رحمة الله ، لكن ما الذى يشغلك ؟

ـ صراحة أنا أحب الحرية كما تعلم ، لكن المصالح التى تركها تحتاج الى مراعاة ٠٠ الجنائن الثلاث ، كل واحدة تزيد على العشرة أفدنة ، هذا غير النخيل والعجول والأطيان والأشياء الأخرى ٠

ـ الله يكون فى عونك يا سيد أبو زيد ٠٠ لكن المبلغ الذى معك الآن ، لا مؤاخذة ، لا يكفى الا لجلابية زوجتك فقط ٠

ـ لا بأس ٠٠ هات الأشياء المطلوبة والحساب يجمع ٠

ـ بصراحة ، يا سيد أبو زيد ، ولا تؤاخذنى ، وقع منى حلف لا أبيع بالشكك أبدا ٠

ـ لكنى سددت كل ما عندى من حساب قديم ٠

ـ لم تسدده كله ٠

ـ هات الجلابية اذن ٠

عاد ليجد عم سباق الخيل وعابدين يجلسان على مقهى ٠٠ عابدين انتهى من احتساء الشاى ، وعم سباق الخيل يشرب الجوزة ، والحمار يأكل فى زعازيع القصب ٠

ـ هيا بنا ٠

ـ ماذا فى داخل الورقة ؟

ـ جلابية للولية ٠

ثم أضاف ضاحكا : هددتنى بسببها أن تذهب الى أهلها ٠

ركب عابدين الحمار ، دون أن يربط هذه المرة ، وسارا بجواره ٠٠ خارجا من البندر ، قطعوا المشوار الطويل ، ثم عبروا النهر ودخلوا الطريق الصاعد الى الصحراء الى النقطة مع الأصيل ٠

وقفوا أمام جندى بدين أمامه مائدة عريضة فوق أرض ترابية ، على كتفه أربعة شرائط عريضة ، سألهم على الفور : من أى بلد ؟

ـ الفوز ٠

ـ أعوذ بالله ٠

تناول البلاغ وقال ساخطا : النقطة ليس لها عمل الا مشاكل ناس الفوز ٠٠ يبدو انكم معجونون بماء العكننة ٠

ارتج على عم سباق الخيل ، لكن أبو زيد مشاكل قال ضاحكا :

ـ البركة فى سعادتك يا حضرة الصول ٠

ـ ما الحكاية ؟

ـ هذا الولد سرق حمار عم سباق الخيل ٠

ـ اسمك يا ولد ؟

ـ عابدين ٠

ـ عابدين من ؟

أشار الى أبيه وقال : ابن سباق الخيل ٠

ـ ابنك ؟

ـ نعم ٠

وضع الورقة أمامه واتكأ بمقعده الى الوراء ولمعت عيناه :

ـ الله الله ٠٠ لم يبق الا أن أفض المشاكل العائلية ٠

ثم صرخ وهو يضرب المائدة :

ـ وما دخلى أنا بينك وبين ابنك ؟

قال عابدين مقلدا لهجة أبو زيد مشاكل :

ـ البركة فى سعادتك يا حضرة الصول ·· أبى هذا رجل طيب ومبسوط ·· عنده أطيان يجرى فيها الحصان ثلاثة أيام ولا يصل الى آخرها ، هذا غير الجنائن والعجول والنخل والبقر ·

ـ يعنى غنى ؟

هز عم سباق الخيل رأسه وقال بثقة :

ـ كله من فضل الله ··

أشار الجندى الى مقعد بجواره وقال :

ـ تفضل يا عم سباق ·

جلس عم سباق الخيل مسرورا ·

ـ لكن ما رأيك ، مادام ربنا مسهل لك ، لو سامحت ابنك من أجل خاطرى ؟

ـ خاطرك كبير عندى ·· أنا مسامحه ·

ـ تشكر يا عم سباق الخيل ، وما رأيك لو أنك صالحته الآن وقبلته ثم قام هو ليقبل رأسك ؟

ضحك أبو زيد مشاكل ، وأمسك بعابدين وقربه من أبيه قائلا بمرح وهو يميل رأس الغلام على عمامة أبيه :

ـ قل له سامحنى يا ولد ·

ـ سامحنى ·

احتضن سباق الخيل الغلام وقال بصوت متهدج :

ـ سامحتك يا عابدين والله ٠

قال الجندى : وما رأيك لو وضعت يدك فى جيبك وأعطيته ما فيه النصيب كى يشترى له حاجة بعد هذه البهدلة ؟

فتح عم سباق الخيل المحفظة وأخـرج الجنيه البـاقى ومده لعابدين ٠

ـ تشكر يا عم سباق ، والآن تفضلوا جميعا من غير مطرود ٠

واتجه الركب الى البلد ٠٠ عم سباق الخيل هو الذى يركب الحمار هذه المرة ووراءه أبو زيد مشاكل وعابدين يتضاحكان ، وبين الحين والحين يستفسر عم سباق الخيل عما أضحكهما ويشاركهما الضحك ٠٠ يملؤه الاحساس بأنه غنى ٠

سطور على هامش الوصول الى القمر

سار به الجواد بجانبه الأيمن ·· زفر من منخازيه فى غطرسة وتوقف · نبش الأرض بحافره الأمامى واستدار من تلقاء نفسه وسار بجانبه الأيسر · عند القناة العريضة اعتدل فجأة ووثب الى الضفة الأخرى ·· بلا مبالاة وثب ·· ليست السيادة أن تكون ابن عمدة أو شيخ بلد ، ولكن أن تجيد السباحة فى مرماح الخيل · فى نهاية الحقول لمح عبد المحسن المسكين يقف على رأس حقله ويبتسم فى سخرية :

ـ الساعة لها علامات يا بن حليمة ·

لا ترد على أحد ولا تعبأ بأحد ·· غايتك محددة وستصل اليها ولو عبرت سبعة بحار ·

ـ من علاماتها أن نراك تقتنى الخيل لأولاد العمد ·

سنة كاملة مرت وأنت تسمع مثل هذا الكلام حتى من أمك التى حملتك فى بطنها فعليك بالصبر ·

لم يشأ أن يمرق من فتحة سد النيل القديم ٠٠ المروق من الفتحة متروك لفرسان الدرجة الثانية وهو أكبر من ذلك ٠٠ قبالة أعلى أجزاء السد ، حرك اللجام حركة متعارف عليها بينه وبين حصانه ٠٠ فهم هذا حركته واندفع ٠٠ طار فى الهواء ، وكومضة البرق كان على الناحية الأخـرى ٠ لو أنك تفرغت للرد على كل ما يقال لما استطعت أن تصل فى استعدادك لهذه النتيجة ٠٠ كيف يستطيع فرد أن يجادل بلدا بأكمله ، أمك نفسها انضمت اليه ٠

– من عشرة قراريط تبيع قيراطين وتشترى الحصان ؟ ٠٠ أصبحنا حديث المجالس وأنت لا ترد لا بالغالى ولا بالرخيص ؟

وما فائدة الرد ان كنت تعرف مقدما أن أحدا لن يقتنع ؟ ٠

تألم الجواد على نفسه وبدأ هبوط منحدر الشاطىء دون أن يتخلى عن خيلائه ٠٠ عند حافة الماء ، استدار فأصبح نهر النيل عن يســاره وقرص الشمس الأحمـر وراءه ٠ فى بداية الرمـال البيضــاء الواسعة ، أحس برغبة الجواد فى اللعب ٠٠ باصبعه البنصر حرك له اللجام فتراقص بالمشية الثلاثية ٠٠ يعلو وينخفض فى مرح كأنه عصفور ٠٠ قبالة هذا الحقل بشجرته الماثلة التقيت بأمية ذات أصيل ٠٠ سلة الطحين فوق رأسها ، ووجها – الذى لا مثيـل له فى بلاد المسلمين أو النصارى – اختفى تحت ذرات الدقيق ٠

– صارحنى بالحقيقة يا صالح أحسن قلبى قادت فيه النار من كلام الناس ٠٠ الحصان اشتريته لأى سبب ؟

– انت فاكرة مرماح العام الماضى ؟

– فاكرة يا عمار الديار ٠

– من كسب المرماح ؟

ـ حصان عمدة « اسنا » ٠

ـ كم كان ثمنه ؟

ـ يمكن ثلاث مئات ٠

ـ باعوه بكام فى نفس اليوم ؟

ـ بألفين يا نور القلب ٠

ـ أنا بعت القيراطين واشتريت الحصان ٠٠ أترك نفسى للجوع وأشترى له العلف ٠٠ كل صباح وكل مساء أركبه وأجرى به فى البرد والحر ، أعلمه أصول الرماحة ٠٠ فى يوم المولد ، باذن الله ، أكتسح به خيل المرماح ، أستعيد القيراطين ، وأعقد عليك يا ست البنات ٠

ـ أنت تغلب أحسن خيال بحصان غيرك يا عمار الديار ٠٠ ايش الحال لو كان الحصان حصانك ؟

قبالة الموردة الكبرى رأى شيخ البلد يهبط بجواده ٠٠ انتشى متوقعا صحبة طيبة ٠٠ الطريق الى المرماح طويل ، وأولاد العمد والأعيان ، هم فقط ، الذين يعرفون للفرسان أقدارهم ٠

ـ سمعت آخر الأخبار يا صالح ؟ ٠٠ مديرية قنا استعدت لنا بحصان جديد اشتراه عمدة « قوص » من العريش ٠٠ واذا لم تستعد مديرية اسوان بحصان يصده ، قل علينا السلام ٠

ـ من الذى يركبه ؟

ـ محمود الزعلان ٠

أنا لك يا زعلان ٠٠ أنا أعرف طريقتك فى الركوب وأعرف كل نقاط ضعفك ولك أستعد طوال العام ٠٠ أنت سخرت منى عندما

توقع لى الفارس الكبير « أبو نقارة » ان أسود المرماح خلال ثلاث سنوات ، ولكنى سأخيب ظنك وأقول لك ، بل الآن ، ومعك انت ٠

ـ مالك يا صالح ؟

ـ أبدا ٠

ـ لماذا لم تحضر مرماح الأقصر ؟

ـ مشغول ٠

ـ محمود الزعلان غلبنا غلب ما يعلم به الا الله ٠٠ فضح فارسنا الكبير « أبو نقارة » فضيحة سرت فى النجوع الفوقانية والتحتانية ٠٠ غلبه ثلاث مرات وفى المرة الرابعة رفض أن يضربه بالجريد مع أنه الدور كان عليه ٠٠ سبقه بمائة ذراع وأطلق الجرائد الثلاث فى الهواء ، تحيـة للعربان والفرسان ، وقال الضرب فى الميت حرام ٠٠ أكثر من مائة بنى آدم فتحوا محافظهم وطلبوا شراء الحصان فى الحال ٠

ـ سمعت ٠

ـ ربنا يكفيك شر غلب الرجال يا صالح ٠٠ أبو نقارة طلع من المرماح كأنه بنت عرف أهلها انها عابت ٠٠ الخلق فى المرماح كانوا مشغولين فى الرقص والغناء لابن مديريتهم ـ الزعلان ـ لكن لما طلع أبو نقارة سكتوا ، لو رميت ابرة فى شونة تسمع صوتها ٠

ـ نجاملهم فى المسرات ٠

ـ يشكروا ٠٠ أعطوه حقه وزيادة ٠٠ لكنى سمعت انه حلف ما يضع رجله فوق ظهر حصان ، وسافر مصر ٠

ـ وأرضه ؟

ـ كلها أربعة قراريط فى حضن الجبل ، باعها وحلف ما يدخل

بلدهم بقية العمر وترك الدنيا للزعلان يرمح فيها ولا أحـد قادر عليه .

ـ الفروسية الحقة ليست فى أن تركب خيل غيرك وتغلب بها ليبيعوها وتنتفخ حافظات نقودهم .. لكن أن يكون الحصان الغالب حصانك وما عليك الآن يا زعلان الا أن تبيع قراريطك وترحل .

ـ عارف يا صالح .. علفت حصانى أحسن علف ودربته أحسن تدريب وربما فكرت فى النزول للزعلان .

شمل حصان ابن الشيخ بنظرة متفحصة وأحس بالخوف .. تسلقا انجسر الفاصل بين القريتين وهبطا الى الطـريق الترابى العريض .. التفتا صوب غابة السنط يتأملان طيور أبى قردان تحوم فوق أعشاشها ، قبل المبيت ، وتملأ الدنيا ضجيجا ..

ـ عند من ستبيت الليلة يا صالح ؟

ـ عند رجل قريبى .. وانت ؟

ـ أنا معزوم عند جماعة .. تسابق .

توقفا وتراجع الجوادان الى الوراء وتوترت الأعنة فى الأيدى :

ـ هب ..

اندفـع الجوادان واستطالا .. ضاقت الأعين تتقى سرعة الريح والتحمت السماء بالأرض .. أحس بأن المسافة بينهما تتسع من تباعد صوت حوافر حصان ابن الشيخ .. فجأة انقطع الركض وراءه فتوقف .. رأى ابن الشيخ يعيد لف عمامته ويضحك .. فى الخلفية موجات عالية من الغبار تحوم حول بعضها .

* * *

دخل المرماح فى اللحظة التى طلعت فيها الشمس ٠٠ سقطت فى البداية فوق قبة الشيخ ثم غمرت الفرسان الذين يركضون فى صحراء المرماح بلا نظام ينشطون خيولهم ٠

عند قبة الولى ، ظهر الشيخ عمران بعمامته الضخمة فوق جواده السمين ٠٠ عما قليل يشرف على تنظيم الخيل المتسابقة بصفته غفير صاحب المقام ٠٠ يأمر وينهى ويوقف المرماح فى اللحظة التى يريد كأنه اله ٠٠

– سلام عليكم يا عم عمران ٠

– وصلت فى ميعادك يا صالح ٠

– خير ؟

– مديرية قنا استعدت لنا بخيل تسد عين الشمس ٠٠ جاءت معها بخيل قوص والأقصر واسنا وقفط وأرمنت ودشنا ونجع حمادى وربك يسترها ٠

– وأحسن حصان ؟

– حصان عمدة قوص ، لكن الذى يركبه ولد شارب من لبن أمه ٠٠

– تقصد الزعلان ؟

– ولد واعر يا صالح ٠٠ لكنى اتفقت مع عمد البلاد ومشايخها عليك انت ٠

– وأنا أستعد له طول السنة ٠

– هو وصل بحصانه من عشرة أيـام ، وأرسلت له جماعة ليسرقوا طاقيته لنعمل له « عمل » ليعجز عن الركوب ، لكنهم وجدوا

أهل البلد يحرسونه هو والحصان طول الليل ٠٠ ربنا يطرح فيك البركة يا صالح وتبيض عمائمنا ٠

دار به الحصان حول نفسه كأنما « عرف » باختيار صاحبه للمعركة الفاصلة ٠

سأفرجك على صالح وهو يهز الركاب فى المرماح يا عم عمران

ـ قلبى حاسس ٠

أدخل صالح اللجام فى كربوس السرج وخلع عمامته ٠٠ بدا برأسه المحلوقة بالموسى وعنقه الأسمر النحيل كواحد من صغار كهنة آمون ٠٠ أعاد لف العمامة على مهل وبنى طياتها فوق بعضها وأمالها قليلا الى الأمام شأن المعتد بنفسه ٠

وجاء الشيخ غانم يتبختر بجواده الأسود الكسول ، بينما قفطانه الشاهى يلمع تحت أشعة الشمس كأنه يعلن عن مجىء مسئول خيل محافظة قنا ٠٠ تصافحا هو والشيخ عمران فوق ظهر الخيل وتضاحكا ٠٠ بدا منظرهما ، هذا بسمرته اللامعة وذاك فى لون الطمى ، كحاكمين من حكام الأقاليم فى مصر القديمة يتفاوضان على الحدود ٠

انتظمت الخيل وراء بعضها ، صف لكل محافظة ، وتجمعت الجماهير الغفيرة فى صفين عميقين بطول المرماح ٠٠ بدا السباق هادئا وتأرجح النصر بين الفريقين ، وشجعت الجماهير كل حصان يفوز ، لكن تحيزها لخيل اسوان كان واضحا ٠

فجأة صمت المرماح واختلت الصفوف وتوقف ركض الخيل حين دخل « الزعلان » ساحة المرماح وجواده يتقافز به كالكرة المطاطية ٠٠ هلل له الشيخ غانم ، ووضع الشيخ عمران كفه فوق

عمامته واغتصب ابتسامة :

ـ مراحب ٠

خرجت الخيل من المرماح الا من بضعة جياد ممتـازة نأت بأنفسها عن التعرض لفضيحة متوقعة فتجمدت كالتماثيل ٠

ركض الزعلان بجواده طويل القوائم ، ضامر البطن ، رفيع الوجه ، وطعن الهواء بجريدته الخضراء الطويلة المبرية على هيئة الرمح ، وضغط الشيخ عمران على أسنانه وقال متحديا :

ـ استعد يا صالح ٠

تسلطت آلاف الأعين على صالح ، وجواده يتقافز به بالمشية الرباعية التى تتتابع فيها أرجله كأنها تعزف ٠٠ توقف بجوار الشيخ عمران ينتظر عودة الزعلان من نهاية المرماح ٠

* * *

من بعيد ظهر جواد أشقر يرقص ٠٠ على جبهته بقعة بيضاء وثلاث من أرجلـه سـوداء ٠٠ سرج القطيفـة مزيج من الأزرق والأحمر والأخضر ومن أعلى عنقه تدلت قلادة من الأحجبة المثلثة المكسوة برقائق الذهب ٠

حين دخـل بين الصفين نفش ريشـه فبدا بألوانه الزاهيـة كالطاووس ٠٠ توقف أمام الشيخ عمران وثنى عنقه فى عزة وأخذ يلوك اللجام بصوت مسموع ٠٠ جنت الجماهير وانطلقت الزغاريد فىموجات ودوت الطبول ودقت الصاجات النحاسية وأطلق المزمار الغليظ الصوت : « خلوا الهوى ٠٠ لصحابه » ٠٠ وضحك الشيخ عمران من أعماقه وقال لصالح :

ـ أهالى قنا لا يعرفون شيئا عن المفاجأة ٠٠ عمـدة خزان

اسوان اشتراه منذ ثلاث سنوات وأحضر له خمسة فرسان يعلمونه الرماحة ٠٠ لا يأكل الا البلح المحمص والقمح المنقوع فى الزيت ، ولا يشرب الا الماء المحلى بالسكر ٠٠ أمه فرس أحمد الزغبى شيخ مشايخ ادفو ، وأبوه حصان عمدة الرمادى ٠٠ جده حصان رينيه قطاوى باشا ، وجدته فرس المهدى الكبير زعيم السودان ٠

مذكرات حمـــار العمـدة

الزمن غادر يا سادة ·· خذوا حذركم منه ·· من يرانى الآن لا يصدق اننى فى يوم من الأيام كنت حمار العمدة ·· أى والله ·· حمار العمدة ·· وأى عمدة ؟ ·· عمدة « الجهلانة » التى ليس مثلها فى البلاد ·

ولدت فى أول الأمر عند رجـل قصير القامة اسـمه الحاج بسيونى ·· لم أذق عنده غير أعواد الذرة الجافة ·· أمى كانت حمارة بيضاء طويلة القوائم ، لكنها جلد على عظم ·· فى بداية الأمر كنت أمرح فى الحقول كما يحلو لى ·· فى أحد الأيام فوجئت بجار سـيدى فى الحقـل يصرخ فيه فى غضب : « اربط الجحش الصغير » ·· وبعد جدال طويل لوحت فيه الأيدى وعلت الأصوات ، أحضر الحاج حبلا طويلا وربطنى به بجوار أمى ·· وكانت هذه أول صدمة نفسية أتعرض لها فى حياتى ·

بعدها عرفت من أحاديث الناس الذين يزورون الحاج بسيونى اننى جحش غير عـادى ·· بعضهم كان يفتـح فمى وينظـر فى أسنانى ·· وبعضهم يدور حولى ويمصمص شفتيه ·· وغيرهم

يربتون على ظهرى ويتحدثون فى اعجاب عن طول قامتى وجمال عنقى ودقة خرطومى ٠٠ لكنهم جميعا كانوا يقولون له ان السوق ليست على ما يرام ٠٠ ثم يفتحون حافظاتهم ويخرجون منها أوراقا خضراء ، ويرفض سيدى أن يأخذها ويقول لهم : « هذا قليل ٠٠ والله لولا العذر ما بعته » ٠٠ يقول ذلك فى شهامة ٠٠ وينصرفون ليعيدوا الكرة ٠

فى أحد الأيـام فوجئت بعدة أشخاص يهبطون على سـيدى فيرتبك لرؤيتهم ويجرى أمامهم هنا وهناك ٠٠ كان أحدهم يعلق على كتفه خشبة حمراء لامعة تعلوها ماسورة رمادية ٠٠ كانت هذه أول مرة أرى فيها البندقية ٠٠ جلس الرجال بجوار شجرة الليمون الشرقية يشربون الشاى ويوجهون الى نظرات حادة ٠٠ نهض سيدى بعدها وفك الحبـل عن رجلى وهو غارق فى عرقه وملامحه توحى بأنه يهم بالبكاء ٠

امتطى حامل البندقية ظهر أمى وانطلقت وراءه فى فرح شديد لحريتى التى عادت ٠٠ بعد مشوار طويل لم أقطع مثله ، وجدت نفسى أمام ساحة كبيرة حولها بيوت عالية ذات بوابات ضخمة فشعرت بالخوف ٠٠ أقبل علينا عدة رجال كانوا يجلسون على دكة عالية فى نهاية الساحة ٠٠ كلهم لهم كروش كبيرة يتقدمهم رجل ذكرنى كرشه العظيم بجاموسة الحاج بسيونى ٠٠ داروا حولى وأمسكنى الرجل الذى يحمل البندقية من خرطومى مسكة جهنمية بحيث لم أجد الا أن أستسلم له ٠٠ وربت أكبرهم كرشا على ظهرى ثم فتح فمى وحدق فى أسنانى ٠٠ ولعب بيده فى شعرى ، ثم نظر الى ما بين أذنى وقال ان « النخلة » الموجودة فوق رأسى تدل على (السعد) ٠٠ فقال له حامل البندقية وهو يبتسم :

ـ أحسن جحش فى البلد والله يا حضرة العمدة ٠

وحدقت فى الكرش الكبير لما عرفت مركزه ! ٠٠ فأشار بيد

سمينة أعجبتنى جدا ، الى أحدهم وقال :

ـ أدخله فى الاسطبل الجديد ·· وقل للحاج بسيونى يقابلنى بعد صلاة العشاء ·

فى لحظات وجدت نفسى فى حجرة كبيرة سقف نصفها ·· بداخلها حجرة أخرى مغلقة ·· أحاط بى ثلاثة رجال لم تعجبنى أشكالهم ·· يرتدون اثمالا بالية ، وأرجلهم الحافية مشققة ·· كانت تصرفاتهم تدل على أنهم لا يحبوننى ·· أحدهم راح يقلـم أظافرى ويتفنن فى تنسيقها ·· والثانى أحضر المـاء والصابون وانهمك فى غسلى فشعرت بالبرد الشديد ·· وفتح الثالث الحجرة بمفتاح خشبى كبير معلق على الحائط ·· وعاد بعد قليل يحمـل كميـة من الشعير والذرة والبلح ، وضعها فى مكان مرتفع أعـد لذلك خصيصا ·· عند انصرافهم قال أحدهم وهو يجفف يديه فى ثيابه ويتنهد :

ـ على الطلاق الصابونة ما دخلت بيتى من شهر ! ·

أكلت يومها كما لم آكل من قبل ·· لم أكن أعـرف أن الدنيا بهذا الجمال ، وأن مثل هذه الأطعمة يمكن أن تتاح للواحد ! ·

فى الصباح قـادنى أحدهم فى رفق ·· خرجت معه منتعش النفس ، أحس برغبة شديدة فى الانطلاق ·· تقدم بى من مجلس العمدة العزيز ، فوقف حضرة العمدة لى بمجرد أن رآنى ·· وقف لى أيضا كل الناس الذين كانوا حوله ·· شعرت باحترامى الشديد لنفسى لما أحاطوا بى تطل من أعينهم دلالات الاكبار والاجلال ·· فهمت اننى غير عادى فعلا ! ·

ثمة رجل طويل القامة صارم الملامح ، مضى يرمقنى بنظرات نارية أخافتنى ·· دار حولى على مهل ، والعمدة يرقبه فى قلق ، ثم تقدم منى وأمسك عنقى بيد ، وضربنى بحد اليد الأخرى تحت

خرطومى ضربة آلمتنى جدا فقفزت بلا شعور الى أعلى ووقفت على الخلفيتين وعودى يهتز كأننى أرقص ·· بعدها هز الرجل الصارم رأسه وقال فى حماس :

ـ مبارك يا عمدة !

ضحك العمدة فى سعادة حتى ظهرت بقايا تفـل الشـاى على أسنانه · قال للرجل الصارم فى صوت متهدج :

ـ أريدك أن تهدمه وتبنيه من جديد ·

رد الرجل فى ثقة : انت عارف ·

قال العمدة : لكن اياك أن تضربه ·

ـ الضرب عندى ممنوع ·· الا فى حالات ·

ـ لا ·· لا تضربه ·

ـ حتى ولو رفس يا عمدة ؟

ـ حتى لو رفس ·· قلبى أحبه ·

ـ لكن ···

ـ لا تقل لكن يا سلمان ·· لا أريد أن أحضر عندك فجأة وأرى فيه آثار خيرزانة واحدة ·

ـ أمرك ··

قادنى سلمان الى بيته ·· وجدت هناك ثلاثة جحوش فى مثل سنى ·· كانوا يقفون فى مرابطهم فى أدب جم ·· الواحد فيهـم يقف برجليه الأماميتين على أرضية أعلى من أرضية الخلفيتين ·· بهرنى المنظر الرائع ·· وسرعان ما فك سلمان أحدهما وربطه فى

مكان آخر ، وأعطانى مكانه ·· ولاحظت انه اختار لى أحسن مكان ·· ثم غاب قليلا وجاء بشريط أبيض لفه على حبلى كيلا يؤذينى فى رجلى ·· ولفت نظرى أن الزملاء ليست لهم أشرطة مثلى ، فأيقنت أننى مختلف عنهم بطريقة ما ·· وتأكدت من هذا عندما رأيت وجبات الطعام مختلفة أيضا ·· يوضع لهم الشعير فقط بجانب البرسيم ، بينما يوضع لى الذرة والبلح مع الشعير والبرسيم ·· قال لى أحدهم مرة :

ــ الدنيا حظوظ ·· فأنت جحش العمدة ! ·

سرتنى هذه الكلمة كثيرا ، لكننى لاحظت أن الزملاء يندمجون مع بعضهم أكثر من اندماجهم معى ·· وتمنيت لو أن نقلى تم الى مكان آخر ·· وبدأت أشعر بالضيق فى كثير من الأحيان ·· وفى احدى نوبات الضيق ضربت سلمان برجلى الخلفية فى فخذه ·· فنظر الى فى غيظ وقال : « طيب » ·· ثم أحضر حيرزانة رفيعة وقف شعرى عند رؤيتها ·· لكنه وقف قليلا بجوارى كأنه يفكر ثم هز رأسه ولوى شفته وأعاد الخيرزانة الى مكانها ·· ونظر الى الزملاء فى دهشة شديدة وقال أحدهم فى غيظ :

ــ هذه تفرقة ·· لو فعلها أحدنا لمات من الضرب ·

لم أعره انتباها ·· فهو أتفه من أن يرد عليه مثلى · وبمرور الأيام انقطع كل حديث بينى وبين الزملاء ·· أصبحت أتعامل مع سلمان مباشرة ·· لا سيما فى اللحظات التى يكنس فيها ما تحتى ويشاركنى أكل البلح ·

مدة طويلة مرت بى وأنا على هذه الحال ·· شعير وبرسيم وذرة وبلح ولا شىء آخر ·· فى أحد الأيام جاء سلمان بحديدة عجيبة التركيب ·· لها حبلان طويلان من الجلد ·· أدخلها فى فمى

فضايقتنى ٠٠ جذبت عنقى فى عنف فارتطم رأسى بصدره ٠٠ فتوجع وصاح :

ــ ملعون أبو صاحبك ! ٠

ثم نادى ابنه وأمسكانى معا بطريقة أعجزتنى عن الحركة ٠٠ ووضع سلمان الحديدة العجيبة التركيب فى فمى وهو يتشهد ٠٠ وضيق سلسلة رقيقة أسفل خرطومى ضايقتنى أشد الضيق ، فوجدت نفسى لا أستطيع تحريك عنقى الا الى أعلى حتى خيل الى أن رأسى يكاد يرتطم بالسماء ٠٠ وقال لابنه وهو يضحك :

ــ اللجام (لايق) عليه ! ٠

ثم وضع ذلك الشىء المقوس الذى يسميه السرج على ظهرى وربط حزامه الجلدى حول صدرى بدرجة أزهقت أنفاسى ٠٠ ووثب على ظهرى فى خفة الثعلب ٠٠ وانطلقت به الى الخارج وأنا فى حالة من الغيظ تشبه الجنون ٠٠ وما أن وصلت الى الطريق الكبير حتى رأيت الناس ينظرون لى فى دهشة ويتساءلون :

ــ طيارة ؟!

ولم يصادفنى انسان فى الطريق الا توقف فى سـيره وراح يحملق فى ٠٠ وعند العودة مد أحدهم اصبعه نحوى وصرخ :

ــ رقبته مثل رقبة الحصان ٠

وكان سلمان طوال هذا يقهقه فى سعادة مما زاد ثقتى بنفسى ، وفى الأيام التالية أصبحت أجد فى هذه الرحلات لذة لا تعادلها لذة ٠٠ وتعلمت مع الأيـام المشية السريعة المتعجلة ٠٠ والمشية المتوسطة ٠٠ ومشية (المخطـرة) البطيئة الخاصة بالأكابر كما فهمت من سلمان ٠

وبعد مدة جاء الرجل حامل البندقية ومعه لجام جميل يبرق تحت أشعة الشمس وتحت ابطه سرج أنيق غطى بالقطيفة الخضراء ٠٠ وامتطانى سلمان ورحت أتبختر به بالمشية البطيئة الى أن وصلت الى ساحة العمدة ٠٠ فهب واقفا لى فى اجلال وراح يتحسسنى فى سعادة ٠٠ ثم قربنى بجوار الدكة وصعد عليها وجلس فوق ظهرى ٠٠ فدهشت للفارق الكبير بين وزنه ووزن سلمان ٠٠ ولكن الصحة ـ والحمد لله ـ لا تجعلنى أفكر كثيرا فى مثل هذه الأمور التافهة ٠٠ انطلقت بالعمدة فى اتجاه الحقول ، ولشد ما كانت دهشتى أن رأيت الناس فى الطرقات يقفون لى فى احتــرام شديد ٠٠ يرفعون لى أيديهم فوق رؤوسهم ويصيحون وهم يبتسمون : (ألف مبــروك يا عمدة ٠٠ ربنا يجعل على قدمه السعد) ٠٠ فكان العمدة يتمتم بكلمات مقتضبة لا أسمعها ٠٠ ولكننى فهمت من احترام الناس الشديد لى أننى لابد من فصيلة أخرى ٠٠ قد تكون الخيل مثلا ٠٠ لذا قررت أن أجعل لنفسى شخصية تليق بى ٠

عند حقل العمدة تجمع حولنا خلق كثير ٠٠ طلعوا علينا من الجسور والقنوات ٠٠ لم تعجبنى أشــكالهم ولا ثيابهــم الزرقاء ولا رائحة الروث التى تفوح من ملابسهم ٠٠ تمنيت لو نزل العمدة من فوق ظهرى وتركنى عليهم لأشبعهم ضربا وركلا ٠٠ وقفوا أمامى فى احترام شديد تطل من أعينهم نظرات الخوف ٠٠ قال لهم العمدة فى لهجة آمرة : « اعملوا مربط للجحش فى الهواء الطلق » ٠٠ هزوا رؤوسهم وهم يتطلعون الى فى اكبار ٠٠ حانت منى التفاتة فرأيتها ٠٠ فى نهاية الحقل المجاور وقفت ٠٠ نبيلة الأذنين مدهشة الوقفة ٠٠ ثنت عنقها فى دلال فتلاقت الأعين ٠٠ هزت ذيلها فدق القلب ٠٠ كدت أطرح العمدة أرضا لأتمرغ تحت قدميها ٠٠ ضاق اللجام فى فمى فعرفت أن العمدة تنبه لنيتى ٠٠ عدت الى الاسطبل ورائحتها ملء خياشيمى ٠٠ صحت بكل ما أملك من قوة فلم يجد الصياح ٠٠ انتابتنى ثورة جنونية فلم يتحطم قيد أو يقطع حبل ٠٠

دخل ابن العمدة وراح يربت على ظهرى ٠٠ انتظرت أن يفك قيدى ويذهب بى اليها فلم يفعل ٠٠ اكتفى باللعب فى معرفتى والدوران حولى ٠٠ تجمع غيظى فى لحظة املأت خياشيمى برائحتها ، ضربته فى بطنه ضربة قوية نفست بها عما بى ٠٠ صرخ فى رعب ثم تقوس ورقد بجوار الحائط ٠٠ دهشت عندما رأيت الاسطبل يمتلىء بالآدميين من رجال ونساء ٠٠ علا صراخهم عند دخول العمدة حافى القدمين عارى الرأس ٠٠ حملوا الشاب وذهبوا به وهو يئن ويشهق ٠٠ بعد وقت ليس بالقصير جاء العمدة ومعه عدة رجال وبصحبته سلمان ٠٠ نظر الى العمدة فى غيظ شديد وقال لى : « يا كلب ! » ٠٠ ثم التفت الى سلمان وقال له : « أى تعليم هذا الذى علمته اياه ؟ » ٠٠ قال سلمان فى ثبات : « أنا علمته كما يجب أن يكون التعليم ٠٠ لا يوجد فى البلد من هو أرشق منه أوأسرع أو أعلى رقبة » ٠٠ قال العمدة : « ولكنه يرفس ٠٠ كاد الولد أن يموت » ٠٠ قال سلمان : « لا حيلة لى فيما حدث يا عمدة ٠٠ قلت لى لا تضربه حتى ولو رفس » ٠٠ فكر العمدة طويلا ثم قال : « هل تستطيع أن تعلمه من جديدة ؟ » ٠٠ هز سليمان رأسه وقال فى أسف : « فات الأوان يا عمدة » ٠٠ أسند العمدة يده على الجدار وقال : « والحل ؟ » ٠٠ قال سلمان : « حمارة شيخ البلد ولدت جحشا جميلا ٠٠ أعلمه لك » ٠٠ نظر العمدة ناحيتى طويلا وقال فى حسرة : « خسارة » ٠٠ بعدها التفت الى حامل البندقية وقال له : هات الأسطى شلبى العربجى ٠

* * *

الزمن غادر يا سارة ٠٠ خذوا حذركم منه ٠٠ من يرانى الآن يظن أننى ولدت بين فكى هذه العربة ٠٠ عند هذا الرجل الكريه الذى لا هم له الا ضربى بالسياط ٠٠ أضربه برجلى فيزوغ من الضربة فى خفة القرد ٠٠ ويلسعنى بالسوط فى حقد ٠ ٠ثم يقول لأصحابه فى كل لحظة ووقت وفى تكرار ممل :

تعلم أحسن تعليم ٠٠ لكن التربية تنقصه ٠

السيمفونية العجيبـــة

الحركة الأولى

مادمت صاحب فضل ، فأنت مبغض الى الناس ، كان أبى عليه رحمة الله يقول : الناس يحقدون على اللامعين ويسخرون من المهملين ٠ منذ أيام أفضيت لصديقى « سلمان العرابى » بحاجتى الى خفير قوى ، يحرس حظيرتى الجديدة التى وضعت فيها لحم البطن وما ترك الأب والجد ، سأعطيه عشرة قروش فى اليوم ، وله أن يأكل ويشرب بالاضافة الى كسوة فى الصيف وأخرى فى الشتاء كما تقضى تعاليم الشريعة ، شرطى ألا يكون من أهل البلد ، هؤلاء لا يحبون لى ولا لأسرتى الخير ٠

فى اليوم الثالث جاءنى بفتى طويل أزرق العينين ٠٠ عليه عمامة مثل التى نراها فى الصور لمحمد على الكبير ٠ قدمه لى قائلا : هذا هو مطلبك ٠

ـ اسمك يا فتى ؟

أجابنى دون أن يتلجلج :

ـ عبد الله ٠

ـ عبد الله من ؟

ـ عبد الله أبو مراد ٠

قال لى سلمان : هذا الفتى من نسل كبير المماليك « مراد بك » الذى فر فى الزمن القديم أمام جحافل الفرنسيين ، وأقام عندنا فى قرية « المرادية » المجاورة ، حقا انه قليل الأصل كما ترى ، لكنه قوى كالثور ، شجاع كالخرتيت ! ٠

نظرت الى قامة الفتى المنصوبة كالرمح ، وعينيــه البراقتين الواثقتين ووافقت ٠

فى الصباح جاءنى « شمندى المسلوب » ، وهو رجل عجوز نشأ فى بيتنا حتى كاد يصبح واحدا منا ٠٠ أيقظنى من النوم وهو يقول :

ـ سيدى ٠٠ اللصوص نهبوا الحظيرة ٠

ـ نهبوها ؟!

أزحت الغطاء من فوقى دون أن أشعر اننى نصف عار :

ـ أتقول نهبوها يا وجه النحس ؟

بكى الرجل وهو يكمل :

وجدنا عبد الله مربوطا بالحبال فى أحد الأعمدة ٠٠ أنفه وارم والدم يسيل من فمه حين فككنا الحبال سقط على الأرض ، ولا زال مغمى عليه حتى الآن ! ٠

كدت أجن أقول الحق ٠٠ سبعة وأربعون عجــلا كانت فى

الحظيرة ، هذا غير تسع بقرات ، وغير فرسنا « العامرية » وحصاننا « الأشقر » ٠

ـ والعمال يا وجه النحس ؟!

ـ كلهم كانوا مقيدين بالحبال ! ٠

ـ والكلاب ؟

ـ وجدناها ميتـة ٠٠ يبـدو ان اللصوص أعطوها طعاما مسموما ! ٠

حين وصلت وجدت المسمى بعبد الله قد أفاق ، فانهلت عليه لكما وصفعا فاذا به ـ لدهشتى ـ يسدد الى فكى لكمـة أوقعتنى على الأرض ولا زالت تؤلمنى حتى الآن ، حين غضب أبناء عائلتى وأرادوا الفتك به ، فوجئنا بابراهيم العسقلانى يتصدى لهم ويقول فى لهجة جافة :

ـ هذا خفير لا أكثر ولا أقل ، يكفيه ما حدث له ، ان كانت بكم نخوة ، فابحثوا عمن نهبكم ! ٠

لم أرد عليه ، ابراهيم العسقلانى من أكبر أعدائنا ٠ يجد لذة فى الدفاع عن خصومنا ٠ وفعلا ، رأيته يمسح على وجه عبد الله بالماء ، ويتلطف به وكأنه هو المجنى عليه لا أنا ٠ ولم أشأ طبعا أن أعلق خوفا من نشوب قتال مع عائلته التى يدفعها حسدها للتحرش بنا ٠ وتدخل شيخ البلد فى الأمر فألقى بالكثير من الماء على النار ، وقابلت مأمور المركز بنفسى ورويت له ما حدث ، قلت له أنا أتهم « عبد العال الحميرى » الذى يسكن الجبل ويقطع الطريق وتتغير بسببه مآمير المراكز ٠ واهتم الرجل بالأمر فقبض على « عبد الله » و « سليمان العرابى » وخمسة آخرون ٠ دار التحقيق وركب جنود

البوليس الخيل وشرقوا بها فى البرارى وغربوا وفى النهاية قيدوا الحادث ـ كالعادة ـ ضد مجهول ! لكن كل شىء يهون عدا شماتة الحساد ، فما دمت صاحب فضل ، فأنت مبغض الى الناس • كان أبى يقول : الناس يحقدون على البارزين ويسخرون من الخاملين •• لكننى سأنتقم •

الحركة الثانية

الحكاية ليست هكذا ، منذ أسبوع تقريبا جاءنى فتى طويل القامة من قرية « المرادية » وقال لى انه شقيق الفتاة التى كانت تعمل فى بيت السيد « الجهجهونى » ، فهمت طبعا انه يريد الانتقام لشرف أخته •• سألته :

ـ ماذا تريد منى بالضبط ؟

قال لى وهو يبكى : سمعت عنك وعن شهامتك ، أريد بندقية ، وأن تمكننى من خصمى •

الحقيقة وجدتنى فى حيرة من أمرى •• فالجهجهونى صديقى منذ أيام الطفولة ، فى نفس الوقت أنا لا أستطيع أن أخيب رجـاء الفتى • لقد كان أجدادنا العرب يفضلون أن يذبح أولادهم على أن يخذلوا من يستنجد بهم ، ثم أن الجهجهونى قد ارتكب خطأ فاحشا بافتراسه الفتاة • حقا ان البنت كانت ـ فى جمالها ـ مثل الأرض الشرقانة فى انتظـار طلوع النيـــل ، لكن هذا لا ينفى القول ان الجهجهونى رجـل لا ضمير له ، وبالتـالى فأنا فى حل من رباط الصداقة • وفعلا •• تعممت بعمامتى الخضراء وذهبت اليه من ساعتى ، قلت له انت تبحث عن خفير من غير أهل البلد ، ومطلبك عندى وتسلم « عبد الله » البندقية ـ من يد الجهجهونى نفسه والله ـ ومعها الطلقات الخمسين • فى اليوم التالى فوجئت بهم يقبضون

على · تهمتى ـ قال ـ اننى ضالع فى خراب بيت الجهجهونى · هذه هى نهاية الوقوف بجانب الضعفاء · هذا المسمى بعبد الله بدل أن يثأر لشرفه ، تصرف هذا التصرف الرخيص ، على كل حال أنا لم أقصر فى واجبى بنجدتى له كما تقضى تقاليدنا العريقة ·· الذنب ليس ذنبى ·

الحركة الثالثة

كل ما قيل حول هذا الموضوع ليس له أساس من الصحة ، فلا المسمى بعبد الله كانت له أخت تعمل فى بيت الجهجهونى ، ولا سلمان العرابى ـ هذا الرجل الأفاق ـ أجاره عندما استجار كما يزعم ·

المسألة ان الجهجهونى وعبد العال الحميرى كانت تربطهما صداقة قديمة · كان عبد العال يجوب الوادى برجاله ينهبون القرى والنجوع ، ويلجأون آخر الأمر الى الجهجهونى يصرف لهم مسروقاتهم ، وينزلون ضيوفا عليه فى بيته الذى يقع فى الخلاء ، ومع الأيام وقع بينهما ما يقع عادة بين اللصوص · يقال ـ والله أعلم ـ ان الحميرى قد عاد من احدى غاراته بسبعة جياد أعجبت الجهجهونى فهربها عند أصدقائه ، وزعم له انها سرقت · المهم الخلاف وقع أساسا بين اللصين الكبيرين ولا دخل لعبد الله من بعيد أو قريب ، من أجل هذا تدخلت لحمايته حين رأيت الجهجهونى ورجاله يريدون الاعتداء عليه ، بل كادت تنشب معركة بين عائلتينا لولا أن شيخ البلد ـ رغم كبر سنه وضعف ذاكرته ـ فصل بيننا · هذا كل ما فى الأمر بلا زيادة أو نقصان · الشىء الوحيد الذى أحزننى ، أن بقرة « شمندى المسلوب » ضاعت ·· حصيلة عمره الطويل ضاعت فى معركة اللصوص ·

حتى حكاية العسقلانى هذه ـ مع احترامى له ـ غير صحيحة من بعض جوانبها · عبد العال الحميرى نهب الحظيرة بايعاز من سلمان العرابى · فالعرابى ـ هذا الذى يدعى الشهامة ـ رجل خبيث شديد الخبث · كان صديقا حميما للجهجهونى ، يشاركه فيما يحصل عليه من غارات الحميرى · وفى ليلة قمرية ضبط الجهجهونى مع امرأته فى وضع أغضبه ، ولأنه خبيث شديد الخبث ، تغاضى وكأنه لم ير شيئا ، عم كنت أتكلم ؟! ·· أجل ·· أجل ·· حين غزا الانجليز السودان · كان جد الجهجهونى الكبير يدلهم على دروب الصحارى ويرشدهم على مكامن الدراويش ·· لا ·· أظننى كنت أتكلم عن تدبير العرابى واتفاقه مع الحميرى ·· حين دب الخلاف بين اللصين الكبيرين ، انتهز الفرصة · اتفق مع الحميرى أن يرسل اليه أحد رجاله ، وأوهم الجهجهونى انه عثر له على من يحرس له حظيرته · شيخ الخفراء طرق على الباب ليلا ، وأخبرنى بالمراكب الكبيرة التى رست تحت شاطئنا ، وذهبت بمواشى الجهجهونى · قلت له أنا رجل كبرت ولا أحب وجع الدماغ ·· لو أراد آل العسقلانى أن يستعيدوا شياخة البلد ، فليس لدى ما يمنع ·· جدهم كان شيخا ، لكنه عزل لرفعه قضبان السكة الحديدية أيام ثورة سعد باشا · عم كنت أتكلم ؟! أجل ·· العرابى أعطى الاشارة للحميرى فجاء لنهب الحظيرة · أظننى ذكرت هذه النقطة من قبل ! ·· عم كنت أتكلم اذن ؟! ·· أنا رجل كبرت الآن ولا أحب وجع الدماغ ·

مــــازق

لم يكن عم عطية يثير المرح حوله ـ كعادته ـ فى ذلك اليوم ٠٠ جسده الأسمر النحيل ازداد نحولا ، وشعرات ذقنه البيضاء ازدادت ـ على غير العادة ! ـ فأصبحت تمثل الأغلبية وزعبوطه الأسود شحب سواده ، فتحول الى لون آخر ، وطية عمامته العليا انزلقت الى أسفل فتشبثت بالطية التى تحتها خشية السقوط ، وهو فى شغل شاغل عن كل ما حوله ، يحث الخطى الى « النجع الشرقى » ٠

عند مروره على دكان الحاج عثمان ، هلل الحاج عثمان من بعيد :

ـ أهلا أبو شنب فضة ! ٠

وقال عم عطية فى صوت خفيض ، ودون أن يتوقف فى سيره :

ـ أهلا ! ٠

وصاح الحاج عثمان فى لهجة مرحة وهو يرفع باب البنك أو يقترب من عتبة الدكان :

ـ أدركنا بكلامك الحلو ٠٠ من يومين لم نضحك ! ٠

كان عم عطية قد تجاوز الدكان بعدة أمتار ، وأصبح ظهره للحاج عندما رفع يده وتمتم فى اقتضاب :

ـ فيما بعد ٠

وقف الحاج برهة فوق عتبة الدكان ينظر الى ظهر عم عطية ٠٠ ثم اتجه الى الداخل وهو يخاطب نفسه فى دهشة :

ـ هو ماله يا ترى ! ٠

* * *

بمجرد أن ظهـر عم عطية فى طـرف الساحة الواسعة التى تتوسط (النجع) ٠٠ صاح أكثر من واحد من الملتفين حول الشيخ رشوان كبير النجع وعميده فى الطرف الآخر من الساحة :

ـ ينصر دين النبى ٠٠ عطية وصل ! ٠

حتى الشيخ رشوان نفسه ٠٠ خرج عن وقاره وقال لمن حوله وهو يبتسم ويشير الى عم عطية :

ـ أسمعتم بالخطبة التى ألقاها عندما تعارك عبد الماجد محمود وعلى البشارى ؟

والتفت الموجودون جميعا حول الشيخ رشوان وقالوا فى نفس واحد :

ـ لا ٠٠ ماذا قال فيها ؟

فقال الشيخ وهو يغالب الضحك : حاولنا أن نصلح بينهما ، ولكن دون جدوى ، ولما أعيتنا الحيل وكنا على وشك أن نتركهما ،

حضر عطية وسأل عن الحكاية ، فلما عرفها ، صعد فوق السياج (وأشار الى سياج قريب) وخطب فى الناس خطبــة لها العجب اختتمها بقوله :

« سأل موسى ربه ٠٠ يا رب : هل خلقت أسوأ من عبد الماجد محمود ؟! فقال له : تأدب يا موسى ٠٠ على البشارى أسوأوأنكد وأضل سبيلا ! » ٠

وأكمل عميد النجع الحكاية وهو يضحك :

ـ تصوروا أن الناس أغرقت فى الضحك ، وأن عبد الماجد محمود ، وعلى البشارى ظلا يضحكان أكثر من ساعة ثم اصطلحا ! ٠

وهنا اقترب عم عطية ، فرفع يده الى أن لامست عمامته الكبيرة وقال دون أن يتوقف فى سيره :

ـ السلام عليكم ٠

والتفتوا جميعا اليه بما فيهــم الشيخ رشوان وصاحوا فى مرح :

ـ وعليكم السلام ٠٠ تعال يا شيخ عطية ٠٠

لكن عم عطية استمر فى سيره متجها الى الدرب الذى يبدأ من طرف الساحة الجنوبى وقال دون أن يلتفت اليهم :

ـ مرة ثانية ٠

وضاعت ابتساماتهم فى لمح البصر ، وعقــد بعضهم ما بين حاجبيه ٠٠ وقال له الشيخ رشوان :

ـ تعال ٠٠ ولو ساعة !

لكن صوته جاءهم وهو يتوارى خلف السياج :

ـ معلهش ٠٠ مرة ثانية ٠

ونظر بعضهم الى بعض فى دهشة شديدة وقال أحدهم :

ـ ماله ؟

فرد عليه آخر متسائلا :

ـ ما الحكاية ؟

وضرب الشيخ رشوان كفا بكف ٠

❋ ❋ ❋

فى الطرف الآخر من الدرب ، جاوز عم عطيــة عدة بيوت سمراء ، واتجه الى بيت طلى من الخارج بالجير وكتب عليه بخط بدائى « حج مبروك » ٠٠ وفى أعلى الجدار ، فوق البوابة ، الصق طبق من الصينى ، وعند الباب وثب عليه كلب أصفر اللون ، كان يرقد فوق العتبة ، نبح بشدة فى أول الأمر ، ثم ما لبث أن صمت وراح يهز ذيله ويتمسح به ٠٠ ومد عم عطية يده الى (الضبة) فضربها بالباب عدة ضربات ، وقبل أن يرد أحد دفع الباب بيده ودخل ٠٠ بيت واسع تتوسط فناءه عدة نخلات وفى طرفه الغربى قامت ثلاث حجرات ، اتخذت أسقفها شكل الأقبية ٠٠ تقدمت منه فتاة صغيرة فى السابعة من عمرها ، حلوة التقاطيع ، ترتدى ثوبا أحمر ، يصدر من حجلها صوت كلما خطت خطوة ، ما أن رأته حتى صاحت فى فرح :

ـ خالى ٠٠ جاء ! ٠

فسألها وهو يتناول يدها الممدودة ويحاول الابتسام :

ـ أمك هنا ؟

أجابت البنت وهى تجرى الى حجرة فى الجهة الجنوبية يتصاعد منها الدخان :

ـ الحقى يا أمى ·· خالى جاء ! ·

وظهرت امرأة فى حوالى الأربعين ، سمراء اللون ، شديدة الشبه بعم عطية ، ترتدى ثوبا أزرق ، وتغطى رأسها بخمار أسود ، ابتسمت عن أسنان بيضاء جميلة وقالت مرحبة فى فرح :

ـ أهلا يا شيخ العرب !

صافحها عم عطية دون أن يبتسم قائلا :

ـ أهلا يا حاجة ·

ثم اتجه الى سرير من الحبال يقع تحت سقيفة تحملها عدة أعمدة من الطوب النيىء بينما تعلقت الصغيرة بثوبه فى فرح ، ولحجلها (خشخشة) وكأنه يشاركها فرحتها ·

جلس عم عطية وهو يتنهد ، بينما اقتربت منه المرأة وقد غابت ابتسامتها وأطلت من نظراتها تساؤلات تبحث عن جواب ·· جلست على الأرض واستندت بكوعها على طرف السرير الذى يجلس عليه ، وقالت وملامحها تتساءل معها :

ـ مالك ؟

قال وهو يتنهد :

ـ البنت ··

برقت عينا المرأة ، وزوت ما بين حاجبيها ، وقالت وهى تمد عنقها :

ـ بنتك ؟

هز رأسه علامة الايجاب ، ثم أسند رأسه على يده بينما اتجهت نظراته الى الأرض ·· فتساءلت المرأة وهى تحدق فيه فى دهشة :

ـ مالها ؟

قال دون أن يحول نظراته من الأرض :

ـ طلقوها ·

ضربت المرأة صدرها بيدها فى قوة ، واصطبغ صوتها بنبرة فزعة :

ـ أجرنا يا رسول الله ! ·· لماذا وهى لم تكمل السنة ؟

حرك عم عطية شفتيه دون أن ينطق ثم رفع رأسه وردد بصره بين المرأة والصبية ، فنظرت المرأة الى الصبية وقالت لها :

ـ اجرى العبى مع البنات ·

تشبثت الصغيرة بكمه وهى تقول لأمها فى صوت مخنوق :

ـ سألعب مع خالى ! ·

نهضت المرأة من مكانها ، وغابت قليلا ، ثم عادت وهى تحمل ثلاث بيضات ، وزجاجة فارغة مدتها للفتاة قائلة :

ـ اشترى جاز ! ·

تناولت الفتاة الزجاجة فى احتجاج شديد ، ووضعت البيضات فى جيبها · وخرجت مهرولة وعادت المرأة الى مجلسها وقالت :

ـ ما السبب ؟

حرك عم عطية كلتا يديه ، وقال بصوت مجروح :

ـ السبب يعلمه الله ·

– لكن ألم تقل لك هى عن السبب ؟

– زوجها أحضرها الى البيت ليلا ٠٠ وقال لى يا شيخ عطية انت راجل طيب لكن بنتك ليست طيبة ٠٠ هى طالق بالثلاثة واسألها عن السبب ! ٠

– وسألتها ؟

ظلت تبكى طول الليل دون أن تذكر السبب ٠ وفى آخر الليل قالت ٠٠

وصمت عم عطية ، بينما مدت المرأة عنقها فى تحفز وكأن جسدها كله قد تحول الى آذان صاغية ٠٠ وقال عم عطية وهو يقلب يديه :

– ماذا أقول ؟ ٠٠ لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠

لم يطرف للمرأة جفن ، راحت تحدق فيه محبوسة الأنفاس ، فقال عم عطية وقد تهدج صوته :

قال انه يتهمها بأنه شاهد رجلا يخرج من عندها ٠

صاحت المرأة فى فزع ، وفى لهجة شبه خطابية ، وسبابتها ممدودة :

– أجرنا يا رسول الله ٠٠ الشفاعة يا محمد !

وظلت المرأة تردد الجملة فترة ليست بالقصيرة وعم عطية مطرق برأسه ، ثم سألته :

– ألم يقل عن اسم الرجل ؟

– زعم لها انه ابن مكى الغندور ٠

ـ ضوى ·· أم جاد ؟

ـ جاد ··

قالت المرأة بعد فترة صمت :

ـ وما الذى فعلته ؟

ـ ماذا أفعل ؟ ·· لا اله الا الله محمد رسول الله ··

ـ لكن ·· هل تصدق هذا ؟

ـ أنا لا أصدق ·· لكن ·· وكلام الناس ؟

فكرت المرأة قليلا ثم قالت :

ـ ومن يدرى الناس ؟

نظر اليها عم عطية فى دهشة وقال :

ـ والطلاق ؟

نظرت المرأة الى الأرض ، وراحت ترسم بأصابعها عدة خطوط مستقيمة فى التراب ، ثم قالت بغتة كمن تذكرت شيئا :

ـ وابنك ·· سمع ؟

ـ سمع ؟

ـ ماذا قال ؟

ـ قال نقتل البنت ! ·

ضربت المرأة صدرها صائحة :

ـ يقتلها ؟

لم يرد عم عطية ، فتساءلت المرأة :

ـ يقتلها دون أن يتأكد ؟

ـ قال انه الحل الوحيد لمنع كلام الناس

ـ لكنها بريئة ! ٠

ـ هو قال ربما تكون بريئة ، لكن هذا لن يمحو العار ٠

ـ والسجن ؟

ـ قال ٠٠ هذه المسائل لا تستحق السجن ، عند أبناء عمه من أفراد القبيلة ، يلقونها فى النيل ، ثم يبحثون عنها كأنها غرقت ! ٠
مدت المرأة سبابتها وهتفت :

ـ أجرنا يا رسول الله ٠٠ وهل وافقته ؟

ـ قلت له طول باله ، أفكر فى الأمر ، وربما كانت بريئة ، قال لى معك مهلة يوم واحد ٠

ـ لا ٠٠ قطع الولد ٠٠ البنت بريئة ٠

ـ قال لى اما أن أقتلها ، أو أخرج من البلد ولا أعود ! ٠

قالت المرأة وهى تضرب كفا بكف :

ـ هذه عين صابتكم ٠٠ الشفاعة يا محمد ! ٠

فى هذه اللحظة ٠٠ فتح الباب ، ودخلت الصغيرة تحمل فى يدها الزجاجة ، وضعتها أمام أمها ، ثم اعتلت السرير ، وأمسكت بيد عم عطية وراحت تنظر اليه فى سعادة ، وما لبثت أن قالت :

ـ خالى ٠٠ احك لى حكاية الثعلب الذى سرق البقرة ! ٠

وضع عم عطية يده على كتفها وضمها اليه وقال :

ـ غدا يا آمنة ٠

قالت الفتاة فى اصرار وهى تستكين فى حضنه :

ـ بل الآن ٠٠

صاحت فيها المرأة فى ضجر :

ـ انزلى نزلت عليك نجمة ٠٠ يقطع البنات وخلفتها ! ٠

انكمشت الفتاة فى حضن خالها ٠٠ الذى ضمها اليه أكثر ٠٠ وقالت المرأة :

ـ هل أرسل فى طلب ابن عمك ؟

ـ طبعا ٠

خاطبت المرأة الفتاة قائلة :

ـ اجرى يا آمنة ٠٠ قولى لأبيك اترك كل شىء وتعال ٠

همهمت الفتاة محتجة وهى تلتصق بخالها أكثر ، الذى ربت على كتفها مطيبا ، وقال :

ـ اجرى يا ناصحة ٠

اتجهت الصغيرة الى الباب ، وتعبيرات وجهها تحمل شقاء العالم كله بينما صوت حجلها يشاركها الاحتجاج ٠

جلس الحاج حسب الله على سرير من الحبال مواجه للسرير الذى يجلس عليه عم عطية ، بينما جلست المرأة على الأرض متكئة بكوعها على السرير الذى يجلس عليه أخوها ، وفى آخر السقيفة فى ركنهـا الشرقى ، بجوار الزير ، تربعت الصغيرة تنظـر الى المتهامسين فى حزن شـديد ، ونظرها محلق بوجه أبيها ، وكأن ملامحه الصارمة هى التى أضفت مسـحة الحزن على وجههـا البرىء ٠

بعد فترة صمت طويلة ، رفع الحاج حسب الله وجهه ، وقال فى صوت أجش :

ـ النار ولا العار ٠٠ الناس لن يتركونا فى حالنا ! ٠

رفعت المرأة يديها وقالت فيما يشبه الرجاء :

ـ أما كان الأولى أن يؤجل الطلاق ؟

التفت اليها الحاج وقال فى حزم :

ـ ولم يؤجله ؟ ٠٠ الرجل لا تعره زوجته ٠٠ ولكن تعره أخته أو بنت عمه ، أو واحدة من قبيلته ٠

ثم التفت الى عم عطية قائلا :

ـ اسمع ٠٠ ان كان ولابد أن تموت البنت ، فلابد أن يموت معها ابن مكى الغندور ! ٠

نظر اليه عم عطية ، وقال فى اعياء :

ـ وقبيلته ؟

ـ نقاتلها اذا لزم الأمر ! ٠

أسند عم عطية رأسه بيديه وقال :

ـ وتخرب البلد ؟

قال الحاج فى اصرار وهو يلوح بذراعه :

ـ تخرب ٠٠ تخرب !

ثم ما لبث أن التفت ناحية الصغيرة وكأنه تذكر شـيئا ، ثم قال وهو يخفض من صوته :

ـ على العموم هذا سابق لأوانه ٠٠ يجب أن نثبت براءة البنت أولا ٠

رفع عم عطية رأسه ، وحدق فيه ثم قال كالمستنجد :

ـ وكيف نثبت براءتها ؟

خلع الحاج حسب الله عمامته الكبيرة ، وراح يلفها من جديد وهو يتمتم :

ـ هذه هى المشكلة ٠٠ كيف نثبت براءتها ؟

ثم فكر قليلا وقال :

ـ ألم تسأل نسيبك كيف رأى الرجل يخرج من عندها ؟

ـ لا ٠٠ هو لم يقل لى شيئا أبدا ٠

قال الحاج :

ـ اكفى على الخبر ماجور الى أن نلتقى به ٠

* * *

ـ كانت ساعة مغربية ، وكنت قادما من السـوق ، وعندما اقتربت من البيت لمحت باب (الديوان) مفتوحا ، ومن عادتى أن أمر على الديوان قبل أن أتناول العشاء ، ربما يكون فيه ضيف أو عابر سبيل ، وعندما اقتربت من الديوان ، رأيت ابن مكى الغندور خارجا منه ، وبمجرد أن لمحنى جرى بأقصى سرعة ، وقفت مشدوها للحظات ثم أدخلت رأسى من باب الديوان فرأيت بابه الآخر الذى يفضى الى البيت مفتوحا ٠٠ شككت فى الأمر ، ودخلت البيت عن طريق الديوان ٠٠ وجدت زوجتى فى مكان قريب من باب الديوان الداخلى ٠٠ سألتها : من هذا الذى كان عندك ؟

تلجلجت فى الكلام ·· بعدها اخذتها الى بيت أبيها ·· هذا كل ما حدث ·

بعد أن انتهى الشاب من حكايته ساد صمت عميق ·· عم عطية يضع رأسه بين يديه وبصره متجـه الى الأرض وأصابع الحاج حسب الله تعبث بشاربه ووالد الشاب يردد البصر بين ابنه وبين الحاج حسب الله ، وقد ظهرت الحيرة على ملامحه ، بينما الفانوس المعلق فى منتصف سقف الديوان يهتز اهتزازات خفيفة ، تتراقص معها ظلال الرجال الأربعة على الجدران العارية ·· وقطع الحاج حسب الله الصمت موجها كلامه للشاب :

ـ وكيف عرفت أنه ابن مكى الغندور ؟

ـ أنا أعرفه طبعا ·· والظلام لم يكن تاما ··

حينما واجهت زوجتك ·· ماذا قالت بالضبط ؟

ـ تلجلجت فى الكلام ، ثم بكت ، وقالت لى ، أريد أن أذهب الى أهلى ··

ـ لكن ألا يحتمل أن يكون ابن مكى الغندور قد دخل بقصد السرقة ؟

أشار الشاب الى الأسرة حوله وقال :

ـ الديوان ليس به غير الأسرة ·

ـ لا ·· أعنى يسرق من البيت ·

ـ غير معقول ·· فهو غير محتاج للسرقة ·

ـ هل شككت فى امرأتك من قبل أو أن أحدا أبلغك عنها شيئا ؟

ـ لا ··

مرت فترة صمت أخرى ، ثم قال الحاج حسب الله للشاب :

ـ من عرف بهذا الأمر ؟

أشار الشاب الى أبيه وقال :

ـ أبى فقط ٠٠ وأمى ٠

التفت الحاج الى والد الشاب وسأله :

ـ ما رأيك يا شيخ على ؟

حرك الرجل رأسه وقال فيما يشبه الحشرجة :

ـ لا شىء غير لا حول ولا قوة الا بالله ٠

وقف الحاج حسب الله ووقفوا جميعا لوقوفه ، وقال وهو يخطو خارج الديوان يتبعه عم عطية :

ـ الكعبة لها رب يحميها ٠

وسار الرجلان يشقان جحافل الظلام ٠ وعند نهاية الطريق الزراعى قال الحاج حسب الله :

ـ ياعطية يا ابن عمى ٠٠ النار ولا العار ٠٠ ولكننا لن نترك ابن مكى الغندور ٠

ولم يرد عم عطية ، كان يرخى العنان لدموع تستتر عليها الظلام ٠

* * *

وفى حجرة مستطيلة هى ديوان عم عطية ، جلس ثلاثة شبان فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين من أعمارهم على (برش)

من السعف مفروش على الأرض ، وقد تقاربت رؤوسهم من بعضها حتى كادت عمائمهم الكبيرة أن تتلامس ، وقد انهمكوا فى حياكة عدة أجولة فارغة محاولين أن يصنعوا منها جوالا واحدا كبيرا ، وبجوارهم وضعت كومة من حبال الليف ٠

أحـد الشبان هو ابن (عم عطية) ، والآخـر ابن الحاج حسب الله ، أما الثالث فهو (مصطفى) ابن عمهما ٠

كان مصطفى أكثر وسامة ، وأقلهما حماسا لما هو فيه من عمل ، بينما عم عطية قد جلس على سرير من الحبال وقد أسند رأسه بين يديه ، وجلس الحاج حسب الله على سرير آخر يراقب عمل الشبان الثلاثة ٠٠ ورفع مصطفى رأسه وقال يخاطب الحاج حسب الله :

ـ والله العظيم بنت عمى بريئة ٠٠ والذى يستحق الموت هو زوجها الحمار ٠

فسأله الحاج :

ـ وما الذى يدريك ببراءتها ؟

قال الشاب فى حماس :

ـ بكاؤها المستمر خير دليل ٠٠ وأنا مستعد أن أتزوجها ! ٠

صمت الحاج ، وتوقف بقية الشبان عن ما هم فيه من عمل ، ورفع عم عطية رأسه ونظر الى مصطفى فى انكسار وقد اكتسبت ملامحه تعبير من يهم بالبكاء ٠٠ لكن ابنه دفع أحد الأجولة الفارغة أمامه وقال فى حدة :

ـ مستحيل ٠٠ سيظن الناس أن ابن عمها قد تزوجها ليستر العار ! ٠

فقال عم عطية فى صوت ضعيف يخاطب ابنه :

– وماذا فى هذا يا ولدى ؟

نظر الابن الى أبيه فى استغراب شديد وقال متعجبا :

– أتقول ماذا فى هذا يا أبى ؟ ·· الا تعلم أنت بمعناه ؟ ·· أليس هو العار نفسه ؟!

فتدخل الحاج حسب الله ، وقال يخاطب الابن :

– أنا أعـرف أن الحق معك ! ·· لكن لا تنس أن الخبر لم ينتشر ·· لم يعرف بهذا الأمر غير نسيبك وأبيه وأمه ·

فقال الشاب فى سخرية :

– فقط ؟ ·· الا تعلم يا حاج أن أمه قد تطوعت بنشر الخبر وأننا الآن حديث كل النجوع ؟

فقال عم عطية لولده فى رجاء وبصوت متهدج :

– يا ولدى ·· الله يرضى عليك ·· طول بالك ·· وأجل عملك هذا الى الغد ·

فرد الشاب فى حدة :

– لا يمكن ·· أنا حلفت ·· اما أن أمسح العار ، واما أن أخرج من البلد ولا أعود ! ·

ثم وقف وقال يخاطب أباه وينظر فى الوقت نفسه الى الحاج حسب الله :

– أريد كلمة واحدة ·· اما « نعم » واما « لا » ! ·

فأشار الحاج بيده الى الشاب اشارة من يطلب منه الجلوس ، والتفت الى عم عطية وقال له :

ـ يا شيخ عطية ٠٠ نحن أمام أمرين ٠٠ اما الولد ، واما البنت ٠٠ والبنت طبعا سهلة ، فى داهية عليها ؟ ٠٠ أما الولد ، فلا يمكن أن يعوض ! ٠

وصمت الحاج قليلا ثم أشار بسبابته الى صدره وقال وهو يجيل بصره بين الجميع :

ـ أم أنا مخطىء فى هذا الكلام ؟

ولما لم يرد أحد ، أشار الحاج الى الشاب يأمره بالجلوس مرة أخرى قائلا :

ـ وحدوه ! ٠

وعاد عم عطية برأسه بين يديه من جديد ٠

* * *

كان الشــبان قد انتهــوا من صنع الجوال الكبير ، وانهمك الاثنان فى صنع حبل طويل من الليف له ثلاثة أفرع فى كل فرع ثلاث فتحات صنعت بطريقة خاصة ٠٠ أما مصطفى فقد كان فى واد آخر ٠٠ كان يراقبهما فى صمت وقد مد يده خلف ظهره يتكىء عليها وقد مال بجذعه الى الوراء قليلا ، بينما تهدلت عمامته فتدلى بعضها خلف ظهره دون أن يلحظ ذلك ٠٠ بينما اكتست ملامحــه الجميلة بتعبير قريب من البلاهة ، أو كأنه فى غير وعيه ٠٠ مما جعل ابن عم عطية يقول له :

ـ ان كنت تريد أن تذهب فتفضل ٠٠ أنا مسامحك ٠

ولم يذهب مصطفى كما لم يعمل معهما ، كأن الكلمة موجهه لغيره ٠٠ أما عم عطية ، فقد ظل فى وضعه الأول ، رأسه كسباطة

البلح المدلاة ، ويداه كركيزتين لولاهما لسقط الرأس على الأرض ! ٠٠ بينما راح الحاج حسب الله يوجه الشابين الى ما يجب عمله فى طريقة صنع حبال الليف ! ٠

بينما هم على هذا الحال سمعوا لغطا فى الخارج ٠٠ أرهفوا السمع جميعا ما عدا عم عطية ، لم يتحرك من مجلسه ، أو يعدل من وضعه ، وما هى الا لحظات حتى سمعوا من يطرق عليهم باب الديوان ، نظـروا جميعا الى بعضهم بعضا ، وقـام ابن الحاج حسب الله فجمع الأجولة والحبال وقذف بها تحت أحد الأسرة ، ثم تقدم من الباب وفتحه ٠٠ فرأى أمامه مكى الغندور بقامته الطويلة وزعبوله الأسود وعباءته الفضفاضة الحمراء وقد لف فوق عمامته شالا من الصوف الأبيض ، وترك بعضه يتدلى خلف ظهره شأن كبـار زعمـاء القبائل ٠٠ أفسح له الشـاب الطريق ، فدخل تسبقه عصاه العاجية المقبض يتبعه عشرة رجال من أبناء قبيلته بين شيخ وشاب ٠٠ وقف الجميـع لهم ، فجلس مكى الغندور فى صـدر المجلس ، وما أن استقر بهم المقام حتى نظر الحاج حسب الله الى ابن عم عطية وقال له :

ـ القهوة ! ٠

رفع مكى الغندور يده معترضا وقال :

ـ لحظة واحدة ٠

فتسمر ابن عم عطية فى مكانه وران الصمت على الجميـع فقال مكى الغندور :

ـ قبل القهوة لنا كلمة ٠٠ اسمعوها ٠٠ بعدها اما شربنا القهوة وعدنا أحبابا ، أو رفضناها وخرجنا أعداء ! ٠

تسلطت النظرات على مكى الغندور ، فقال فى صوت قوى :

ــ لقد بلغنا ما بلغكم ·· وجئتكم الآن لأقول لكم ان ابنى برىء من هذا الأمر ·· فقد كان مارا ــ لحظتها ــ بجوار ديوان نسيبكم فوجد بابه مفتوحا ·· وكان قد سمع أن الديوان الجديد قد سقف بأعمدة الحديد بدلا من جذوع النخل ·· وغلبه فضوله أن يلقى نظرة على أعمدة الحديد ، ولما دخل ، وجد الباب الآخر مفتوحا ·· ولما كان (ولدا) ناقص العقل ، فقد أطل من الباب الآخر فلمح ابنتكم تسير فى البيت بثوب قصير ، فجفل ، واندفع خارجا بأقصى سرعة فكاد يصطدم بنسيبكم الذى تصادف وصوله فى نفس اللحظة ·· ولما لم يجد ما يقوله له ، فقد ولى هاربا ·· هذا كل ما فى الأمر كما رواه لى ابنى ·· لا اكثر ولا أقل ·

سكت مكى الغندور ، وصمت القوم ·· كان صمتا أثقل من الشك نفسه ، وقلب الرجل نظراته بين الجميع يرى وقع كلماته فألفى وجوها جامدة جمود الصخر ·· الوحيد الذى ارتخت ملامحه هو عم عطية ، لكنه كان ينظر الى ابنه تارة والى الحاج حسب الله تارة أخرى ·· أما مصطفى فلم يبد على تعبيراته ما يدل على موقفه ، الا أن عينيه لمعتا لمعانا غريبا ·· وقطع مكى الغندور الصمت بقوله :

ــ يا عرب ·· قبيلتنا وقبيلتكم حليفان منذ الأزل ! ·· أجدادنا وأجدادكم عاشوا أحبابا ·· ونحن نريد أن نعيش كما عاشوا ·· وأى حكم يعجبكم أنا مستعد لقبوله ·· ان كنتم تريدون ابنى أنا أحضره اليكم ، تفعلون به ما تشاؤون ·· والله لو قتلتموه ما سألتكم ولا طالبتكم بثاره ·· لكن قبل هذا لى عندكم رجاء ·

صمت مكى الغندور قليلا ، ثم قال وهو يمد يده نحو عم عطية :

ــ بنت الشيخ عطية لابنى ·· على سنة الله ورسوله ·· ماذا قلتم ؟

فى هذه اللحظة ارتخت كل الملامح ، وانفجرت جميع الأسارير ، وابتسم الشبان الثلاثة وعلى رأسهم ابن عم عطية ٠ وظهرت أسنان مصطفى البيضاء ، واتسعت عينا عم عطية ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء ٠ ورفع الحاج حسب‌الله يده ووضعها فوق عمامته وقال :

ـ قبلناكم يا عرب ٠٠ الولد ولدنا ، والبنت بنتكم ٠٠ وأنتم منا وعلينا ٠٠ و ٠٠٠

وهنا مد مصطفى يده وقاطع الحاج قائلا :

ـ كلمة يا حاج من فضلك ٠٠

فصمت الحاج وقال له :

ـ تفضل ٠٠

فقال مصطفى وهو يهم بالوقوف مخاطبا مكى الغندور ومن معه :

ـ قبلناكم ٠٠ لكن البنت لى ٠٠ أنا أولى بها ! ٠

فنظر الحاج الى مكى الغندور وقال له وهو يبتسم :

ـ طبعا بعد اذنك يا شيخ العرب ! ٠

فرد مكى الغندور وهو يتنهد :

ـ كان أملى أن أجدد عهد الأجداد بالنسب ٠٠ لكن مصطفى أولى ٠٠ الفاتحة بالصفاء والنور ٠

وارتفعت الأكف تقرأ الفاتحة ، بينما الدموع تتساقط من عينى عم عطية وهو يتلو الفاتحة ٠٠ وثمة ورقة لصحيفة قديمة تتدحرج فى الخارج ظهر فيها عنوان صارخ يعلن (قتلها ورمى جثتها فى النيل !) ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٣٢/٢٣٠٠
رقم الايداع ١٩٨٣/٥٤٢١
٩ ـ ٢٥٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧